سورة النحل

قال رحمه الله في تفسير عموم سورة النحل:

(والله تعالى ذكر في سورة النحل إنعامه على عباده، فذكر في أول السورة أصول النعم التي لا يعيش بنو آدم إلا بها، وذكر في أثنائها تمام النعم التي لا يطيب عيشهم إلا بها، فذكر في أولها الرزق الذي لا بد لهم منه، وذكر ما يدفع البرد من الكسوة بقوله: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۚ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥﴾ ثم في أثناء السورة ذكر لهم المساكن والمنافع التي يسكنونها: مساكن الحاضرة والبادية ومساكن المسافرين فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ الآية [النحل: ٨٠]، ثم ذكر إنعامه بالظلال التي تقيهم الحر والبأس فقال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾، إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١] ولم يذكر هنا ما يقي من البرد، لأنه قد ذكره في أول السورة وذلك في أصول النعم؛ لأن البرد يقتل فلا يقدر أحد أن يعيش في البلاد الباردة بلا دفء، بخلاف الحر فإنه أذى، لكنه لا يقتل كما يقتل البرد، فإن الحر قد يتقي بالظلال واللباس وغيرهما، وأهله أيضاً لا يحتاجون إلى وقاية كما يحتاج إليه البرد، بل أدنى وقاية تكفيهم وهم في الليل وطرفي النهار لا يتأذون به تأذياً كثيراً؛ بل لا يحتاجون إليه أحياناً حاجة قوية، فجمع بينهما في قوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١]. ولا حذف في اللفظ ولا قصور في المعنى كما يظنه من لم يحسن حقائق معاني القرآن، بل لفظه أتم لفظ. ومعناه أكمل المعاني؛ فإذا كان اللباس والرياش ينزل من ظهور الأنعام، وكسوة الأنعام منزلة من الأصلاب والبطون كما تقدم فهو منزل من الجهتين، فإنه على ظهور الأنعام لا ينتفع به بنو آدم حتى ينزل.

فقد تبين أنه ليس في القرآن ولا في السنة لفظ نزول إلا وفيه معنى النزول المعروف، وهذا هو اللائق بالقرآن، فإنه نزل بلغة العرب ولا تعرف العرب نزولاً إلا بهذا المعنى، ولو أريد غير هذا المعنى لكان خطاباً بغير لغتها، ثم هو استعمال اللفظ

المعروف له معنى في معنى آخر بلا بيان، وهذا لا يجوز بما ذكرنا؛ وبهذا يحصل مقصود القرآن واللغة التي أخبر الله تعالى أنه بينه وجعله هدى للناس، وليكن هذا آخره، والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً كثيراً) ا.هـ[١].

وقال في سبب تسمية النحل بسورة النعم:

(والله تعالى في القرآن يذكر آياته الدالة على قدرته وربوبيته، ويذكر آياته التي فيها نعمه إلى عباده، ويذكر آياته المبينة لحكمته، وهي متلازمة؛ لكن نعمة الانتفاع بالمآكل والمشارب والمساكن والملابس ظاهرة لكل أحد؛ فلهذا استدل بها في «سورة النحل»، وتسمى «سورة النعم»، كما قاله قتادة[٢] وغيره) ا.هـ[٣].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: (اللباس له منفعتان:

«إحداهما»: الزينة بستر السوءة.

و«الثانية»: الوقاية لما يضر من حر أو برد أو عدو.

فذكر اللباس في «سورة الأعراف» لفائدة الزينة وهي المعتبرة في الصلاة والطواف، كما دل عليه قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١]. وقال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ [الأعراف: ٢٦] وقال: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾ [الأعراف: ٣٢]. رداً على ما كانوا عليه في الجاهلية من تحريم الطواف في الثياب الذي قدم بها غير الحمس، ومن أكل ما سلوه من الأدهان.

وذكره في النحل لفائدة الوقاية في قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١] ولما كانت هذه الفائدة حيوانية طبيعية لا قوام للإنسان إلا بها جعلها من النعم، ولما كانت تلك فائدة كمالية قرنها بالأمر الشرعي، وتلك الفائدة من باب جلب المنفعة بالتزيُّن، وهذه من باب دفع المضرة، فالناس إلى هذه أحوج.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٥٦ ـ ٢٥٧).

(٢) ذكر ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٤٢٦) عن عليّ بن زيد قال: كان يقال لسورة النحل: سورة النعم، يريد لكثرة تعداد النعم فيها، وذكر القاسمي ذلك عن قتادة (٤/ ٥٠٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٨/ ٢١٠).

فأما قوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] ولم يذكر «البرد»، فقد قيل: لأن التنزيل كان بالأرض الحارة فهم يتخوفونه، وقيل: حذف الآخر للعلم به، ويقال هذا من باب التنبيه، فإنه إذا امتن عليهم بما يقي الحر فالامتنان بما يقي البرد أعظم، لأن الحر أذى، والبرد بؤس، والبرد الشديد يقتل، والحر قل أن يقع فيه هكذا، فإن باب التنبيه والقياس كما يكون في خطاب الأحكام يكون في خطاب الآلاء وخطاب الوعد والوعيد كما قلته في قوله ﴿لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۚ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ [التوبة: ٨١]، ومثله من يقول: لا تنفروا في البرد فإن جهنم أشد زمهريراً، «ومن اغبرت قدماه في سبيل الله حرمهما الله على النار»[1]، فالوحل والثلج أعظم، ونحو ذلك.

وفي الآية شرع لباس مجنٍّ الحرب، ولهذا قرن من قرن باب اللباس والتحلي بالصلاة، لأن للحرب لباساً مختصاً مع اللباس المشترك، وطابق قولهم: اللباس والتحلي، قوله: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٣] وأحسن من هذا أنه قد تقدم ذكر وقايته البرد في أول السورة بقوله: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥﴾، فيقال: لم فرق هذا؟ فيقال والله أعلم: المذكور في أول السورة النعم الضرورية التي لا يقومون بدونها، من الأكل، وشرب الماء القراح، ودفع البرد، والركوب الذي لا بد منه في النقلة، وفي آخرها ذكر كمال النعم: من الأشربة الطيبة، والسكون في البيوت، وبيوت الأدم، والاستظلال بالظلال، ودفع الحر والبأس بالسرابيل، فإن هذا يستغنى عنه في الجملة، ففي الأول الأصول، وفي الآخر الكمال، ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١] و«أيضاً»: فالمساكن لها منفعتان: إحداهما السكون فيها لأجل الاستتار، فهي كلباس الزينة من هذا الوجه، والثاني: وقاية الأذى من الشمس والمطر والريح ونحو ذلك، فجمع الله الامتنان بهذين فقال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [النحل: ٨٠] ـ هذه بيوت المدر ـ ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ [النحل: ٨٠] ـ هذه بيوت العمود ـ ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠]، يدخل فيه أهبة البيت من البسط والأوعية والأغطية ونحوها، وقال: ﴿مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ ولم يقل: من المدر بيوتاً كما قال: ﴿مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ لأن السكن بيان منفعة البيت، فبه تظهر النعمة، واتخاذ البيوت

---

(١) أحمد (٣/ ٣٦٧)، والطيالسي (١٧٧٢) وأبو يعلى (٢٠٧٥) والبيهقي (٩/ ١٦٢) والطبراني (١٩/ ٦٦١)، والدارمي (٢/ ٢٠٢) والحديث صحيح.

من المدر معتاد، فالنعمة بظهور أثرها، بخلاف الأنعام، فإن الهداية إلى اتخاذ البيوت من جلودها أظهر من الهداية إلى نفس اتخاذ البيوت.

وأما فائدة الوقاية فقال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ [النحل: ٨١]، فالظلال يعم جميع ما يظل من العرش والفساطيط والسقوف مما يصنعه الآدميون، وقوله: ﴿مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾، لأن الجبل يكن الإنسان من فوقه ويمينه ويساره وأسفل منه، ليس مقصوده الاستظلال، بخلاف الظلال فإن مقصودها الاستظلال، ولهذا قرن بهذه ما في السرابيل من منفعة الوقاية، فجمع في هذه الآية بين وقاية اللباس المنتقل مع البدن ووقاية الظلال الثابتة على الأرض، ولهذا كانوا في الجاهلية يسوون بينهما في حق المحرم، فكما نُهِيَ عن تغطية الرأس نهوه عن الدخول تحت سقف حتى أنزل الله ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩] وجاز للمحرم أن يستظل بالثابت من الخيام والشجر، وأما الشيء المنتقل معه المتصل كالمحمل، ففيه ما فيه لتردده بين السرابيل وبين المستقر من الظلال والأكنة.

كما أنه قبل هذه الآيات ذكر أصناف الأشربة من اللبن والخمر والعسل، وذكر في أول السورة المراكب والأطعمة، وهذه مجامع المطاعم والمشارب والملابس والمساكن والمراكب)[١].

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

قال رحمه الله: (ونظير هذا في اللفظ قوله: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾. ليس المراد: ما كنتم بالغيه في الماضي، بل هذه حالهم دائماً) ا.هـ[٢].

﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾.

وقال رحمه الله: (فإن قوله: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ امتن الله بها على عباده بما يقصد منعها في العادة، ولم يرد بذلك تحريم أكلها، بدليل أن الصحابة بعد نزول هذه الآية أكلوا لحم الحُمر يوم خيبر حتى نهاهم النبي ﷺ، والآية مكية فلو كان فيها دليل على التحريم كان الصحابة ﷺ أعلم بذلك، وأما الذين نهوا عنها من العلماء كأبي حنيفة، فقيل عنه كراهية تحريم وقيل كراهية تنزيه) ا.هـ[٣].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢١٧ ـ ٢٢٠). (٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٠٩).

(٣) المستدرك على مجموع الفتاوى مخطوط (تحت الطبع).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ ولم تكن البغال موجودة بأرض العرب، ولم يركب النبي ﷺ بغلة إلا البغلة التي أهداها له المقوقس من أرض مصر بعد صلح الحديبية، وهذه الآية نزلت بمكة، ومثلها في القرآن: يمتن الله على عباده بنعمه التي لم تكن بأرض الحجاز، كقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾ [عبس]. ولم يكن بأرض الحجاز زيتون، ولا نقل عن النبي ﷺ أنه أكل زيتوناً، ولكن لعل الزيت كان يجلب إليهم.

وقد قال تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾﴾ [التين] ولم يكن بأرضهم لا هذا ولا هذا، ولا نقل عن النبي ﷺ أنه أكل منهما، وكذلك قوله: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المؤمنون] وقد قال النبي ﷺ: «كلوا الزيت وادهنوا به، فإنه من شجرة مباركة»[(١)] وقال تعالى: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور: ٣٥]، وكذلك قوله: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾﴾ [عبس]، وكذلك قوله في البحر: ﴿لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [النحل: ١٤] وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف] ولم يركب النبي ﷺ البحر، ولا أبو بكر، ولا عمر، وقد أخبر ﷺ بمن يركب البحر من أمته غزاة في سبيل الله كأنهم ملوك على الأسرة ـ لأم حرام بنت ملحان ـ وقالت: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «أنت منهم[(٢)]» ا.هـ[(٣)].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾، ومعلوم أن في هذه الدواب منافع غير الركوب) ا.هـ[(٤)].

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾.

---

(١) الترمذي (١٨٥٣) وابن ماجه (٣٣١٩) وأحمد (٣/ ٤٩٧) والحاكم (٢/ ١٢٢)، والدارمي (٢/ ١٠٢)، والحديث حسن إن شاء الله.

(٢) البخاري (٢٧٩٩)، ومسلم (١٩١٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٢١/ ٣١٥ ـ ٣١٦).

(٤) الجواب الصحيح (١/ ٤٢٩).

(ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي السبيل القصد، وهو السبيل العدل، أي إليه تنتهي السبيل العادلة) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (وكذلك ذكر ابن أبي حاتم عن السلف أنهم فسروا آية النحل، فروى من طريق ورقاء، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد[٢] قوله: ﴿قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾، قال: طريق الحق على الله، قال: ورويَ عن السُديّ أنه قال: الإسلام[٣]، وعطاء[٤] قال: هي طريق الجنة.

فهذه الأقوال ـ قول مجاهد، والسدي، وعطاء ـ في هذه الآية هي مثل قول مجاهد، والحسن، في تلك الآية[٥].

وذكر ابن أبي حَاتِم من تفسير العوفي عن ابن عباس[٦] في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ يقول: على الله البيان، أن يبين الهدى والضلالة.

وذكر ابن أبي حَاتِم في هذه الآية قولين، ولم يذكر في آية الحجر إلا قول مجاهد فقط.

وابن الجوزي[٧] لم يذكر في آية النحل إلا هذا القول الثاني، وذكره عن الزجاج؛ فقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ القصد: استقامة الطريق يقال: طريق قصد، وقاصد، إذا قصد بك إلى ما تريد، قال الزجاج: المعنى، وعلى الله تبيين الطريق المستقيم والدعاء إليه بالحجج والبراهين.

وكذلك الثعلبي، والبغوي[٨]، ونحوهما، لم يذكروا إلا هذا القول، لكن ذكروه باللفظين. قال البغوي[٩]: يعني بيان طريق الهدى من الضلالة، وقيل: بيان الحق بالآيات والبراهين.

قال: والقصد: الصراط المستقيم، ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾: يعني ومن السبيل ما هو جائر عن الاستقامة معوج، فالقصد من السبيل: دين الإسلام، والجائر منها: اليهودية، والنصرانية، وسائر ملل الكفر، قال جَابِر بن عبد الله: قصد السبيل: بيان الشرائع

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ٢٣٠).
(٢) ابن جرير (١٤/ ٨٤).
(٣) ابن كثير (٢/ ٥٦٣)، تفسير السُديّ الكبير (٣٢٥).
(٤) لم أجده.
(٥) قول الحسن ومجاهد في تفسير قوله تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾.
(٦) ابن كثير (٢/ ٥٦٣).
(٧) زاد المسير (٤/ ٤٣٢).
(٨) البغوي (٣/ ٥٢).
(٩) تفسير البغوي (٣/ ٥٢).

والفرائض، وقال عبد الله بن المبارك، وسهل بن عبد الله: قصد السبيل: السنّة، ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾: الأهواء والبدع[١]، دليله: قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ولكن البغوي[٢] ذكر فيهاالقول الآخر، ذكره في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [الليل] عن الفراء، كما سيأتي، فقد ذكر القولين في الآيات الثلاث تبعاً لمن قبله، كالثعلبي وغيره.

والمهدوي ذكر في الآية الأولى قولين من الثلاثة، وذكر في الثانية ما رواه العوفي، وقولاً آخر، فقال: قوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١]، أي على أمري وإرادتي، وقيل: هو على التهديد، كما يقال: «عليّ طريقك وإليّ مصيرك».

وقال في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾: قال ابن عباس: أي بيان الهدى من الضلال، وقيل: السبيل: الإسلام، ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾، أي ومن السبيل جائر أي عادل عن الحق، وقيل: المعنى «وعنها جائر» أي عن السبيل، فـ«من» بمعنى «عن».

وقيل: معنى قصد السبيل: سيركم ورجوعكم، والسبيل واحدة بمعنى الجمع.

قلت: هذا قول بعض المتأخرين ـ جعل «القصد» بمعنى «الإرادة»، أي عليه قصدكم للسبيل في ذهابكم ورجوعكم، وهو كلام من لم يفهم الآية، فإن «السبيل القصد» هي السبيل العادلة، أي عليه السبيل القصد، و«السبيل» اسم جنس، ولهذا قال: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾. أي عليه القصد من السبيل، ومن السبيل جائر، فأضافه إلى اسم الجنس إضافة النوع إلى الجنس، أي «القصد من السبيل»، كما تقول «ثوب خز» ولهذا قال: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾.

وأما من ظن أن التقدير «قصدكم السبيل» فهذا لا يطابق لفظ الآية ونظمها من وجوه متعددة.

وابن عطية[٣] لم يذكر في آية الحجر إلا قول الكسائي، وهو أضعف الأقوال، وذكر المعنى الصحيح تفسيراً للقراءة الأخرى، فذكر أن جماعة من السلف قرأوا (عَلِيٌّ مُسْتَقِيمٌ) من العلوّ والرفعة. قال: والإشارة بهذا على هذه القراءة إلى الإخلاص ـ لمَّا

---

(١) هذا منقول عن ابن عباس برواية علي بن أبي طلحة كما في ابن جرير (١٤/ ٨٥).
(٢) البغوي (٤/ ٤٦٣). (٣) ابن عطية (٨/ ٣١٤).

استثنى إبليسُ مَنْ أخلص، قال الله له: هذا الإخلاص طريق رفيع مستقيم لا تنال أنت بإغوائك أهله.

قال: وقرأ جمهور النّاس ﴿عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾، والإشارة بهذا على هذه القراءة إلى انقسام النّاس إلى غاو ومخلص. لمَّا قسَّمَ إبليس هذين القسمين قال الله: «هذا طريق عليّ»، أي هذا أمر إليه مصيره. والعرب تقول: «طريقك في هذا الأمر علي فلان»، أي إليه يصير النظر في أمرك، وهذا نحو قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر]. قال: والآية على هذه القراءة خبر يتضمن وعيداً[1].

(قلت): هذا قول لم ينقل عن أحد من علماء التفسير، لا في هذه الآية ولا في نظيرها. وإنما قاله الكسائي لما أشكل عليه معنى الآية الذي فهمه السلف، ودل عليه السياق والنظائر.

وكلام العرب لا يدل على هذا القول، فإن الرجل وإن كان يقول لمن يتهدده ويتوعده «علي طريقك» فإنه لا يقول: إن طريقك مستقيم.

وأيضاً فالوعيد إنما يكون للمسيء، لا يكون للمخلصين، فكيف يكون قوله هذا «إشارة إلى انقسام النّاس إلى غاو ومخلص» وطريق هؤلاء غير طريق هؤلاء؟ هؤلاء سلكوا الطريق المستقيم التي تدل على الله، وهؤلاء سلكوا السبيل الجائرة.

وأيضاً فإنما يقول لغيره في التهديد «طريقك عليّ» من لا يقدر عليه في الحال، لكن ذاك يمر بنفسه عليه وهو متمكن منه، كما كان أهل المدينة يتوعدون أهل مكة بأن «طريقكم علينا» لمّا تهددوهم، بأنكم آويتم محمداً وأصحابه، كما قال أبو جهل لسعد بن معاذ لما ذهب سعد إلى مكة «لا أراك تطوف بالبيت آمناً وقد آويتم الصباة وزعمتم أنكم تنصرونهم!» فقال: «لئن منعتني هذا لأمنعنك ما هو أشد عليك منه، طريقك على المدينة»[2]، أو نحو هذا.

فذكر أن طريقهم في متجرهم إلى الشام عليهم، فيتمكنون حينئذ من جزائهم.

ومثل هذا المعنى لا يقال في حق الله تعالى، فإن الله قادر على العباد حيث كانوا، كما قالت الجن: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾ [الجن]، وقال: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [العنكبوت: ٢٢].

---

(١) انتهى قول ابن عطية.

(٢) البخاري (٣٦٣٢).

وإذا كانت العرب تقول ما ذكره: يقولون: «طريقك في هذا الأمر على فلان»، أي إليه يصير أمرك، فهذا يطابق تفسير مجاهد[١] وغيره من السلف، كما قال مجاهد: الحق يرجع إلى الله وعليه طريقه لا يعرّج على شيء، فطريق الحق على الله، وهو الصراط المستقيم الذي قال الله فيه: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١] كما فسرت به القراءة الأخرى.

فالصراط في القراءتين هذا الصراط المستقيم الذي أمر الله المؤمنين أن يسألوه إياه في صلاتهم، فيقولوا: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة]، وهو الذي وصى به في قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٥٣﴾ [الأنعام].

وقوله هذا إشارة إلى ما تقدم ذكره، وهو قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾ [الحجر]، فتعبد العباد له، بإخلاص الدين له، طريق يدل عليه، وهو طريق مستقيم، ولهذا قال بعده ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

وابن عطية ذكر أن هذا معنى الآية في تفسير الآية الأخرى مستشهداً به، مع أنه لم يذكره في تفسيرها، فهو بفطرته عرف أن هذا معنى الآية، ولكنه لما فسرها ذكر ذلك القول، كأنه هو الذي اتفق أن رأى غيره قد قاله هناك، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ﴾. وهذه أيضاً من أجلّ نعم الله تعالى، أي على الله تقويم طريق الهدى وتبيينه، وذلك بنصب الأدلة وبعث الرسل، وإلى هذا ذهب المتأولون.

قال: ويحتمل أن يكون المعنى أن من سلك السبيل القاصد فعلى الله طريقه، وإلى ذلك مصيره، فيكون هذا مثل قوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾، وضد قول النبي ﷺ: «والشر ليس إليك»[٢] أي لا يفضي إلى رحمتك، وطريق قاصد معناه: بيّنٌ مستقيم قريب، ومنه قول الراجز:

بعيد عن نهج الطريق القاصد

قال: والألف واللام في «السبيل» للعهد، وهي سبيل الشرع وليست للجنس، ولو

---

(١) ابن جرير (١٤/ ٣٣).
(٢) مسلم (٧٧١).

كانت للجنس لم يكن منها جائر. وقوله: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ يريد طريق اليهود، والنصارى، وغيرهم كعبّاد الأصنام، والضمير في «منها» يعود على «السبيل» التي يتضمنها معنى الآية، كأنه قال: «ومن السبيل جائر»، فأعاد عليها وإن كان لم يجر لها ذكر لتضمن لفظة «السبيل» بالمعنى لها.

قال[١]: ويحتمل أن يكون الضمير في «منها» على «سبيل الشرع» المذكورة، ويكون «من» للتبعيض، ويكون المراد فرق الضلالة من أمة محمد، كأنه قال: ومن بنيات الطرق من هذه السبيل ومن شعبها جائر.

(قلت): سبيل أهل البدع جائرة خارجة عن الصراط المستقيم فيما ابتدعوا فيه، ولا يقال إن ذلك من السبيل المشروعة.

وأما قوله: ﴿قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ هي سبيل الشرع، وهي سبيل الهدى، والصراط المستقيم، وأنها لو كانت للجنس لم يكن منها جائر، فهذا أحد الوجهين في دلالة الآية، وهو مرجوح، والصحيح الوجه الآخر أن «السبيل» اسم جنس، ولكن الذي على الله: هو القصد منها، وهي سبيل واحدة، ولما كان جنساً قال: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾، والضمير يعود على ما ذُكِرَ بلا تكلف.

وقوله: «لو كان للجنس لم يكن منها جائر» ليس كذلك. فإنها ليست كلها عليه، بل إنما عليه القصد منها، وهي سبيل الهدى، والجائر ليس من القصد، وكأنه ظن أنه إذا كانت للجنس يكون عليه قصد كل سبيل، وليس كذلك، بل إنما عليه سبيل واحدة، وهي الصراط المستقيم، هي التي تدل عليه. وسائرها سبل الشيطان، كما قال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقد أحسن رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الاحتمال، وفي تمثيله ذلك بقوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١]) ا.هـ[٢].

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾.

(وقد قيل في قوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ﴾ [النجم: ١٦] إن العلامات هي النجوم، منها ما يكون علامة لا يهتدى به ومنها ما يهتدى به، وقول الأكثرين أصح، فإن العلامات كلها يهتدى بها، ولأنه قد قال: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا

(١) أي ابن عطية.
(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٠١ ـ ٢٠٩).

﴿وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ وهذا كله مما ألقاه في الأرض، وهو منصوب بألقى أو بفعل من جنسه، كما قال بعضهم، أي وجعل في الأرض أنهاراً لأن الإلقاء من جنس الجعل، وبسط ما في هذا من إعراب ومعان له مقام آخر، (والمقصود هنا) ذكر العلامات، والعلامات يدخل فيها ما تقدم من الرواسي والسبل، فإن كونها رواسي وسبلاً يسلكها النّاس غير كونها علامات، والعطف قد يكون لتغاير الصفات مع اتحاد الذات، كقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى]، وأمثاله، فكيف إذا كانت العلامات تتناول هذا وغيره؟ فإن الجبال أعلام وهي علامات، وكذلك الطرق يستدل بها السالك فيها ولهذا يسمى الطريق إماماً لأن السالك يأتم به، وكذلك يسمون ما يستدل به المستدل طريقاً ومسلكاً) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (وقوله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ﴾، هي علامات ألقاها في الأرض، وهذا قول الأكثرين، قالت طائفة: هي معالم الطرق يستدل بها بالنهار، ويستدل بالنجم بالليل، وقالت طائفة: هي الجبال وهي أيضاً مما يستدل به ولهذا سماها الله أعلاماً في قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرحمن]، أي كالجبال والأعلام جمع علم، والعلم ما يُعلَّم به كالعلامة، منه أعلام الطرق المنصوبة ومنه يقال لدلائل النبوة أعلام النبوة، ويقال للراية المرفوعة: إنها علم وأنها جعلت علامة لصاحبها وأتباعه، والعالم بالفتح مثل الخاتم ما يُعلَّم به، كما أن الخاتم ما يختم به وهو بمعنى العالم، ويسمى كل صنف من المخلوقات عالماً، لأنه علم وبرهان على الخالق تعالى، بخلاف العالِم بالكسر، فإنه الذي يعلم كالخاتِم بالكسر فإنه الذي يختم، قال تعالى: ﴿ولكن رسول الله وخاتِم النبيين﴾ [الأحزاب: ٤٠]، لأنه ختمهم كما يسمى الماحي والحاشر والعاقب، وقد قُرِئَ ﴿وَخَاتَمَ﴾ أي ختموا به، فالجبال أعلام وهي علامات لمن في البر والبحر يستدل بها على ما يقاربها من الأمكنة، فإنه يلزم من وجودها وجوده، وهي لا تزال دالة ما دامت موجودة ومدلولها موجوداً، وهي أثبت من غيرها فقد يكون عندها قرية وسكان فيكون علَماً عليهم، ثم قد تخرب القرية ويذهب السكان فتزول الدلالة لزوال الملزوم) ا.هـ[2].

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾.

---

(١) النبوات (١٨٤ ـ ١٨٥).

(٢) النبوات (١٧٩ ـ ١٨٠).

وقال رحمه الله: (والمشركون كانوا يقرُّون بهذا التوحيد الذي هو نفي خالقين، لم يكن مشركو العرب تنازع فيه. ولهذا قال الله لهم: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ فكانوا يعترفون بأن آلهتم لا تخلق.

ولهذا ذكر الله تعالى هذا التقرير بعد قوله: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون]) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (وكذلك كونه يخلق الأشياء شيئاً بعد شيء أبلغ من كونه لا يمكنه إحداث شيء، بل عند كثير من الناس - أو أكثرهم - كونه يخلق أكمل من كونه لا يخلق، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ الآيات، إلى قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢١] فأخبر أنه خالق منعم عالم، وما يدعون من دونه لا تخلق شيئاً ولا تنعم بشيء، ولا تعلم شيئاً، وأخبر أنها ميتة، فهل يستوي هذا وهذا؟ فكيف يعبدونها من دون الله مع هذا الفرق الذي لا فرق أعظم منه؟ ولهذا كان هذا أعظم الظلم والإفك) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (ولهذا قال ﷻ: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾، فالفرق بين الخالق وغير الخالق كالفرق بين القادر وغير القادر) ا.هـ[4].

وقال رحمه الله: (وقد بيَّن الله سبحانه أنه أحق بالكمال من غيره، وأن غيره لا يساويه في الكمال، في مثل قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾؟ وقد بين أن الخلق صفة كمال، وأن الذي يخلق أفضل من الذي لا يخلق، وأن من عدل هذا بهذا فقد ظلم) ا.هـ[5].

---

(١) منهاج السنة (٣/ ٣٣٠).
(٢) درء تعارض العقل (١٠/ ٢٤).
(٣) مجموع الفتاوى (١٤/ ١٧٨).
(٤) مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٣٧).
(٥) مجموع الفتاوى (٦/ ٧٩).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ وكذلك قوله في أثناء السورة: ﴿۞ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُونَ ۖ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل].

فهو سبحانه بين أنه هو المستحق للعبادة دون ما يعبد من دونه، وأنه لا مثل له. ويبين ما اختص به من صفات الكمال وانتفائها عما يعبد من دونه. ويبين أنه يتعالى عما يشركون وعما يقولون من إثبات الأولاد والشركاء له) ا.هـ[١].

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾.

(وإلا فالقرآن قد سمى الجماد ميتاً في غير موضع كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ الآية. فسمى الأصنام أمواتاً وهي حجارة، وقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ [يس: ٣٣]) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (وقد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ فسمى الجماد ميتاً، وهذا مشهور في لغة العرب وغيرهم) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ فسمى الأصنام الجامدات أمواتاً، وتسمى الأرض مواتاً، كما قال النبي ﷺ: من أحيا أرضاً ميتة فهي له[٤]) ا.هـ[٥].

وقال رحمه الله: في السياق نفسه: («وجميع الأموات لا يشعرون أيان يبعثون. فلا يعلم بقيام الساعة إلا الله ﷻ»)[٦].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٢١ ـ ١٢٢).
(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ٢٢).
(٣) مجموع الفتاوى (٣/ ٢).
(٤) البخاري (٢٣٣٥).
(٥) الصفدية (١/ ٩٥).
(٦) مجموع الفتاوى (١٧/ ٣٦٢).

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

(ومن هذا قوله تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فقوله: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ هي الأوزار الحاصلة لضلال الأتباع، وهي حاصلة من جهة الآمر، ومن جهة المأمور الممتثل، فالقدرتان مشتركتان في حصول ذلك الضلال، فلهذا كان على هذا بعضه، وعلى هذا بعضه، إلا أن كل بعض من هذين البعضين هو مثل وزر عامل كامل، كما دلت عليه سائر النصوص، مثل قوله ﷺ: «من دعا إلى الضلالة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»[(١)]) ا.هـ[(٢)].

﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

(فقوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ يعني مكره من قبل قواعد بنيانهم ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ فتفسير هذا الإتيان خرور السقف عليهم من فوقهم) ا.هـ[(٣)].

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

(وقد قال في النحل: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾، وقال في السجدة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾ [فصلت]، وقد ذكروا أن هذا التنزّل عند الموت) ا.هـ[(٤)].

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

(وقال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهذه باء السبب، أي بسبب أعمالكم.

---

(١) مسلم (٤/ ٢٠٦٠).
(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٧٢٦ ـ ٧٢٧).
(٣) درء تعارض العقل (٢/ ٦٨).
(٤) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٦٨).

والذي نفاه النبي ﷺ باء المقابلة والمعاوضة، كما يقال: اشتريت هذا بهذا، أي ليس العمل عوضاً أو ثمناً كافياً في دخول الجنة، بل لا بد معه من عفوه تعالى ورحمته وفضله ومغفرته، فمغفرته تمحو السيئات، ورحمته تأتي بالخيرات وتضاعف الحسنات) ا.هـ[1].

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٢١٠﴾﴾.

(وقد ذكر القاضي أبو يعلى عن أحمد أنه قال: المراد به قدرته وأمره. قال: وقد بينه في قوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾.

(قلت): هذا الذي ذكره القاضي وغيره أن حنبلاً نقله عن أحمد في كتاب «المحنة» أنه قال ذلك في المناظرة لهم يوم المحنة لما احتجوا عليه بقوله: «تجيء البقرة وآل عمران»، قالوا: والمجيء لا يكون إلا لمخلوق، فعارضهم أحمد بقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وقال: المراد بقوله: «تجيء البقرة وآل عمران»: ثوابهما، كما في قوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾: أمره وقدرته.

وقد اختلف أصحاب أحمد فيما نقله حنبل، فإنه لا ريب أنه خلاف النصوص المتواترة عن أحمد في منعه من تأويل هذا، وتأويل النزول والاستواء، ونحو ذلك من الأفعال.

ولهم ثلاثة أقوال:

قيل: إن هذا غلط من حنبل، انفرد به دون الذين ذكروا عنه المناظرة، مثل صالح، وعبد الله، والمروزي، وغيرهم، فإنهم لم يذكروا هذا، وحنبل ينفرد بروايات يغلّطه فيها طائفة، كالخلال وصاحبه، قال أبو إسحاق بن شاقلا: هذا غلط من حنبل لا شك فيه.

وكذلك نقل عن مالك رواية أنه تأول «ينزل إلى السماء الدنيا» أنه ينزل أمره، لكن هذا من رواية حبيب كاتبه وهو كذاب باتفاقهم.

وقد رويت من وجه آخر لكن الإسناد مجهول.

والقول الثاني: قال طائفة من أصحاب أحمد: هذا قاله إلزاماً للخصم على مذهبه لأنهم في يوم المحنة لما احتجوا عليه بقوله: «تأتي البقرة وآل عمران» أجابهم بأن

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٧٠ ـ ٧١).

معناه: يأتي ثواب البقرة وآل عمران، كقوله: ﴿أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠] أي أمره، وقدرته، على تأويلهم، لا أنه يقول بذلك، فإن مذهبه ترك التأويل.

والقول الثالث: أنهم جعلوا هذا رواية عن أحمد، وقد يختلف كلام الأئمة في مسائل مثل هذه، لكن الصحيح المشهور عنه رد التأويل. وقد ذكر الروايتين ابن الزاغوني وغيره، وذكر أن ترك التأويل هي الرواية المشهورة المعمول عليها عند عامة المشايخ من أصحابنا) ا.هـ[1].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾.

(وقال في النحل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ بيّن سبحانه أن هذا الكلام تكذيب للرسل فيما جاؤوهم به، ليس حجة لهم، فإن هذا لو كان حجة لاحتج به على تكذيب كل صدق وفعل كل ظلم، ففي فطرة بني آدم أنه ليس حجة صحيحة، بل من احتج به احتج لعدم العلم واتباع الظن، كفعل الذين كذبوا الرسل بهذه المدافعة، بل الحجة البالغة لله بإرسال الرسل وإنزال الكتب) ا.هـ[2].

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

(وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾ والعبادة تتضمن كمال المحبة وكمال الخضوع) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (فإن الأنبياء جميعهم وأممهم كانوا مسلمين، مؤمنين، موحدين، لم يكن قط دين يقبله الله غير الإسلام، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٤٠٤ ـ ٤٠٦).
(٢) منهاج السنة (٣/ ٦٠).
(٣) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٤٥٧).

وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إنا معشر الأنبياء ديننا واحد، وإن أولى النّاس بابن مريم لأنا، إنه ليس بيني وبينه نبي»[(١)] وقد أخبر الله في القرآن عن جميع الأنبياء وأممهم ـ من نوح إلى الحواريين ـ أنهم كانوا مسلمين مؤمنين، كما قد بسط في موضع آخر) ا.هـ[(٢)].

وقال رحمه الله: (وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه ذكر في حديث الشفاعة عن نوح قول أهل الموقف له: «وأنت أول نبي بعثه الله إلى أهل الأرض»[(٣)] وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ فإذا كان الله قد بعث في كل أمة رسولاً يدعوها إلى عبادة الله وحده لا شريك له واجتناب الطاغوت، ونوح أول من بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض، عُلِمَ أنه لم يكن قبل قوم نوح مشركون، كما قال ابن عباس؛ وإذا كان كذلك، وأولئك على الإسلام ومذهبهم هو المذهب الذي سماه «مذهب المشبهة» ثبت بموجب هذه الحكاية أن هذا هو مذهب الأنبياء والمرسلين والمسلمين من كل أمة) ا.هـ[(٤)].

وقال رحمه الله: (وأما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ فحق، وتمام الآية: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾، وهذا كقوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر]، وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۗ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]. في أصح الأقوال، أي ولكل قوم داعٍ يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته كما أنت هادٍ أي داعٍ لمن أرسلت إليه، والهادي: بمعنى الداعي المعلم المبلغ، لا بمعنى الذي يجعل الهدى في القلوب كقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى].

وقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

---

(١) البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥).
(٢) الرد على المنطقيين (٢٩٠ ـ ٢٩١).
(٣) هذا في حديث الشفاعة المعروف.
(٤) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٤٥١ ـ ٤٥٢).

ومعلوم أن بني إسرائيل كانوا أكثر الأمم أنبياء، بُعث إليهم موسى، وبُعث إليهم بعده أنبياء كثيرون حتى قيل: إنهم ألف نبي، وكلهم يأمرون بشريعة التوراة ولا يغيرون منها شيئاً، ثم جاء المسيح بعد ذلك بشريعة أخرى غيَّر فيها بعض شرع التوراة بأمر الله ﷻ.

فإذا كان إرسال موسى والأنبياء بعده إليهم لم يمنع إرسال المسيح إليهم، فكيف يمتنع إرسال محمد ﷺ إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى؟ ولهم من حين المسيح لم يأتهم رسول من الله كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩﴾ [المائدة].

وهذه الفترة التي كانت بين المسيح ومحمّد ﷺ وهي فيما ذكره غير واحد من العلماء كسلمان الفارسي وغيره كانت ستمائة سنة، وقد قيل: ستمائة سنة شمسية وهي ستمائة وعشرون أو ثمانية عشر هلالية، وذلك أن كل مائة سنة شمسية تكون مائة وثلاث سنين هلالية، كما قال تعالى: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ٢٥﴾ [الكهف].

وهذه التسع وبعض العاشرة، والتاريخ قد تحسب فيه التامة وتحسب فيه الناقصة، فمن قال عشرين حسب الناقصة، ومن قال ثمانية عشر حسب التامة فقط) ا.هـ[1].

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٨﴾.

(وقال تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٨ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ٣٩﴾.

ومعلوم أن في مبعث الخلق يوم القيامة مقاصد غير بيان المختلف في علم هؤلاء، ومما يبين ذلك أنه قال في الآية التي احتجوا بها: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾ [يس: ٦]، ومعلوم أنه لم يبعث لمجرد الإنذار، بل وليبشر من آمن به، ولأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وتحليل الطيبات، وتحريم الخبائث، وغير ذلك من مقاصد الرسل كما قال تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ...﴾ [النساء: ١٦٥].

---

(١) الجواب الصحيح (٢/ ٩٩ ـ ١٠١).

وقوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ...﴾ [الأنعام: ٤٨] لا ينافي كونه لم يصفهم في موضع آخر إلا بالإنذار، وقد قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾ [الكهف].

وكان المسلمون مرة صلوا صلاة العيد بحضرة حصار النصارى، فقام خطيبهم فخطب بهذه الآية، ولما قرأ قوله: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

أشار إلى جند الإيمان، ولما قرأ قوله: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾﴾، أشار إلى جند الصلبان) ا.هـ[1].

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾.

(وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ قد استدل به من قال المعدوم شيء وهو حجة عليه؛ لأنه أخبر أنه يريد الشيء وأنه يكونه، وعندهم أنه ثابت في العدم، وإنما يراد وجوده لا عينه ونفسه، والقرآن قد أخبر أن نفسه تراد وتكون، وهذا من فروع هذه المسألة) ا.هـ[2].

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

(وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ فهؤلاء ظُلِموا فصبروا على ظلم الظالم لهم، وسبب نزولها المهاجرون إلى رسول الله ﷺ، وهي عامة في كل من اتصف بهذه الصفة. وأصل «المهاجر» من هجر ما نهى الله عنه كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ، فكل من هجر السوء فظلمه النّاس على ترك الكفر والفسوق والعصيان حتى أخرجوه ـ لا هجر بعض أمور في الدنيا ـ فصبر على ظلمهم، فإن الله يبوئه في الدنيا حسنة، ولأجر الآخرة أكبر. كيوسف الصديق فإنه هجر الفاحشة حتى ألجأه ذلك هجر منزله، واللبث في السجن بعد ما ظُلِم، فمكنه الله حتى تبوأ من

(١) الجواب الصحيح (١/ ٤٣١ ـ ٤٣٣). (٢) مجموع الفتاوى (٢/ ١٥٦).

الأرض حيث يشاء) ا.هـ[١].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

(وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾، فأخبر أنه لم يرسل إلا رجالاً يوحي إليهم، لم يرسل إليهم ملائكة ولا نساء، وأنه أرسلهم بالبينات والزبر.

والزبر: جمع زَبُور، وهي الكتب، فإن منهم من أُنزل عليه كتاب، ومنهم من أرسل بتجديد الكتاب الذي قبله) ا.هـ[٢].

﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

(﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾، فبين ما أنزل الله لفظه ومعناه، فصار معاني القرآن التي اتفق عليها المسلمون اتفاقاً ظاهراً مما توارثته الأمة عن نبيها، كما توارثت عنه ألفاظ القرآن فلم يكن ـ ولله الحمد ـ فيما اتفقت عليه الأمة شيء محرف مبدل من المعاني فكيف بألفاظ تلك المعاني؟ فإن نقلها والاتفاق عليها أظهر منه في الألفاظ) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (قال شيخنا: اختلف قول القاضي كسائر العلماء في قوله: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ فلما احتج بها الشافعي على أن الله جعل السنة بياناً للقرآن فلا يجوز أن يكون القرآن بياناً للسنة، قال القاضي: المراد به التبليغ، ويبين صحة ذلك أنه يجوز تخصيص السنة بالقرآن، وكذلك يجوز تفسير مجمل السنة به، واحتج على تأخير البيان بقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة] فقيل له: معناه ثم إن علينا إظهاره وإعلانه لأنه اشترط ذلك في جميع القرآن، فقال: حقيقة البيان هو إظهار الشيء من الخفاء إلى حالة التجلي والإظهار، وهذا إنما يكون فيما يفتقر إلى البيان، فأما ما هو مبين فلا يوجد فيه، وقوله: «إنه اشترط ذلك في جميع القرآن» فلا يمتنع أن يكون المراد بعضه كما قال: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ والمراد بعضه.

قال شيخنا: قلت، هذا ضعيف، بخلاف تفسير ابن عباس، ولا دلالة في الآية

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٢٦ ـ ٣٢٧).
(٢) الجواب الصحيح (٦/ ٣٨٢ ـ ٣٨٣).
(٣) الجواب الصحيح (٣/ ١٧).

على محل النزاع) ا.هـ[١].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

(وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ يعني: صاغرون) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (وقال في سورة النحل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ قال: فلفظ «دابة» إن لم يتناول بني آدم، فالإبل تسجد طوعاً، ولئن تناول بني آدم فسجودهم طوعاً وكرهاً) ا.هـ[٣].

﴿۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾.

(وقال تعالى: ﴿۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾ فأنكر سبحانه أن يُتقى غيره، كما أمر ألا نرهب إلا إياه) ا.هـ[٤].

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

(وقد قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ﴾ الآية، إلى قوله سبحانه: ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ وهذه الآيات كما تناولت ذم الذين جعلوا له شريكاً وولداً، فتناولها لذم هؤلاء الملاحدة أعظم، فإن القائلين بقدم العالم وأنه معلول، جعلوه كله والدلالة[٥] قديماً أزلياً معه، وهذا أعظم من قول أولئك) ا.هـ[٦].

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

(وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ

---

(١) المسودة (١٨٠ ـ ١٨١).
(٢) درء تعارض العقل (٨/ ٥٠٥).
(٣) جامع الرسائل (١/ ٤١).
(٤) الرد على الاخنائي (٢١٢).
(٥) كذا في الأصل.
(٦) جامع الرسائل (١/ ١٠٥ ـ ١٠٦).

فِي ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ يعني ساء الحكم حكمهم؛ أي بئس الحكم حكمهم كما يقال: بئسما فعل وبئسما حكم، حيث حكموا بأن لله البنات ولهم ما يشتهون، فهذا حكم جائر كما أن تلك القسمة جائرة عوجاً، فهذا حكمهم بينهم وبين ربهم، وهذا قسمهم يجعلون لأنفسهم أفضل النوعين ولربهم أدنى النوعين، وهو مثل السوء ولله المثل الأعلى، فالواجب أن يكون أفضل الأنواع وأكملها لله، وما فيها نقص وعيب فالمخلوق أحق بها من الخالق، إذ كان كل كمال في المخلوق فهو من خالقه، فيمتنع أن يكون الأنقص خلق الأكمل، والفلاسفة يقولون بعبارتهم كل كمال في المعلول فهو من العلة، وأيضاً فالموجود الواجب أكمل من الممكن، والقديم أكمل من المحدَث، والغني أكمل من الفقير، فيمتنع اتصاف الأكمل بالنقائص واتصاف الأنقص بالكمالات، ولهذا يوصف سبحانه بأنه الأكرم والأكبر والأعلى وأنه أرحم الراحمين وخير الحاكمين وخير الغافرين وأحسن الخالقين، فلا يوصف قط إلا بما يوجب اختصاصه بالكمالات والممادح والمحاسن التي لا يساويه فيها غيره، فضلاً عن أن يكون لغيره النوع الفاضل وله النوع المفضول، ولهذا عاب الله المشركين بأن ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأنعام] فبئس الحكم حكمهم في هذا كما أنه بئس الحكم حكمهم في جعل الذكور لهم والإناث له.

وساء بمعنى بئس كقوله: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٧٧] أي بئس مثلاً مثلهم، ولهذا قالوا في قوله ساء ما يحكمون بئسما يقضون، وقال تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الإسراء]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف] فهذه الطريقة ـ وهي أن ما يستحقه المخلوق من الكمال الذي لا نقص فيه، فالخالق أولى به، وما ينزه عنه المخلوق من العيوب المذمومة فالخالق تعالى أولى بتنزيهه عن كل عيب وذم، وهو سبحانه القدوس السلام الحميد المجيد ـ من أبلغ الطرق البرهانية، وهي مستعملة في

القرآن في غير موضع) ا.هـ[١].

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾.

(قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ فإن الولد يماثل أباه، وكذلك الشريك يماثل شريكه، فهم ضربوا الإناث مثلاً، وهم جعلوا هذه شركاء لله سبحانه، فكانوا يجعلونها أنداداً لله، والشريك كالأخ فجعلوا له أولاداً إناثاً، وشركاء إناثاً، فجعلوا له بنات وأخوات، وهم لا يحبون أن تكون لأحدهم أنثى لا بنت ولا أخت؛ بل إذا كان الأب يكره أن تكون له بنت فالأخت أشد كراهة له منها. ولم يكونوا يورثون البنات والأخوات، فتبين فرط جهلهم وظلمهم إذ جعلوا لله ما لا يرضونه لأنفسهم، فكانت أنفسهم عندهم أعظم من الله سبحانه.

وهذا كما ضرب لهم مثلاً فقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [النحل]) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾ حيث كانوا يقولون: الملائكة بنات الله، وهم يكرهون أن يكون لأحدهم بنت فيعدون هذا نقصاً وعيباً، والرب تعالى أحق بتنزيهه عن كل عيب ونقص منكم؛ فإن له «المثل الأعلى» فكل كمال ثبت للمخلوق: فالخالق أحق بثبوته منه إذا كان مجرداً عن النقص، وكل ما ينزه عنه المخلوق من نقص وعيب: فالخالق أولى بتنزيهه عنه) ا.هـ[٣].

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

(فقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾، ومن قال: إنه ولد الملائكة، أو قال: إنه ولد العقول أو النفوس، فإنه لا يؤمن بالآخرة، فله مثل السوء) ا.هـ[٤].

---

(١) النبوات (٢٢٦ ـ ٢٢٧).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٣٦٤).
(٣) مجموع الفتاوى (٦/ ٨١).
(٤) درء تعارض العقل (٧/ ٣٨٨).

﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

(وقال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾، فقد بين سبحانه أنه ما أنزل عليه الكتاب إلا ليبين لهم الذي اختلفوا فيه، كما بيّن أنه أنزل جنس الكتاب مع النبيين ليحكم بين النّاس فيما اختلفوا فيه) ا.هـ[1].

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

(قال تعالى: ﴿فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾ قد ثبت أن الدم نجس، فكذلك الفرث، لتظهر القدرة والرحمة في إخراج طيب من بين خبيثين) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ ولو كانت المماسة في الباطن للفرث مثلاً موجبة للنجاسة لنجس اللبن.

فإن قيل: فلعل بينهما حاجزاً.

قيل: الأصل عدمه، على أن ذكره هذا في بيان ذكر الاقتدار بإخراج طيب من بين خبيثين في الاغتذاء، ولا يتم إلا مع عدم الحاجز، وإلا فهو مع الحاجز ظاهر في كمال خلقه سبحانه.

وكذلك قوله: ﴿خَالِصًا﴾ والخلوص لا بد أن يكون مع قيام الموجب للشوب) ا.هـ[3].

﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۖ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

(ولهذا ضرب الله سبحانه «مثلين»: مثلاً بهذا، ومثلاً بهذا فقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۖ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا

---

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ١٧٤).
(٢) مجموع الفتاوى (٢١/ ٥٤٧).
(٣) مجموع الفتاوى (٢١/ ٦٠٢ ـ ٦٠٣).

يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾؟!.

و«المثلان» ضربهما الله سبحانه لنفسه المقدسة، ولما يُعْبَدُ من دونه، فإن الأوثان لا تقدر لا على عمل ينفع، ولا على كلام ينفع، فإذا قُدِّرَ عبد مملوك لا يقدر على شيء، وآخر قد رزقه رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوي هذا المملوك العاجز عن الإحسان وهذا القادر على الإحسان المحسن إلى النّاس سراً وجهراً، وهو سبحانه قادر على الإحسان إلى عباده، وهو محسن إليهم دائماً، فكيف يُشبَّهُ به العاجز المملوك الذي لا يقدر على شيء حتى يشرك به معه، وهذا مثل الذي أعطاه الله مالاً فهو ينفق منه آناء الليل والنهار.

و(المثل الثاني) إذا قُدِّرَ شخصان أحدهما أبكم لا يعقل ولا يتكلم ولا يقدر على شيء، وهو مع هذا كَلٌّ على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير، فليس فيه من نفع قط، بل هو كَلٌّ على من يتولى أمره، وآخر عالم عادل يأمر بالعدل، ويعمل بالعدل، فهو على صراط مستقيم، وهذا نظير الذي أعطاه الله الحكمة فهو يعمل بها ويعلمها الناس) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (فقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ كلاهما مثل بيَّنَ الله فيه أنه لا يستوي هو وما يشركون به، كما ذكر نظير ذلك في غير موضع، وإن كان هذا الفرق معلوماً بالضرورة لكل أحد، لكن المشركون مع اعترافهم بأن آلهتهم مخلوقة مملوكة له يسوون بينه وبينها في المحبة والدعاء والعبادة ونحو ذلك) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (قد قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١١٥ ـ ١١٦). (٢) مجموع الفتاوى (١٤/ ١٧٨ ـ ١٧٩).

مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ وهذا المثل وإن كان يفيد الدعاء إلى عبادة الله وحده دون عبادة ما سواه، ونفي عبادة الأوثان لوجود هذا الفرقان، فإذا علم انتفاء التساوي بين الكامل والناقص وعلم أن الرب أكمل من خلقه، وجب أن يكون أكمل منهم وأحق منهم بكل كمال بطريق الأولى والأحرى) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ فبين أن كونه مملوكاً عاجزاً صفة نقص، وأن القدرة والملك والإحسان صفة كمال، وأنه ليس هذا مثل هذا، وهذا لله وذاك لما يعبد من دونه) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (وقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ فلما ذكر في المملوك أنه لا يقدر على شيء، ومقصوده أن الآخر ليس كذلك، بل هو قادر على ما لا يقدر عليه هذا، وهو إثبات الرزق الحسن مقدوراً لصاحبه، وصاحبه قادر عليه، وبهذا ينطبق عامة العقلاء، يقولون: فلان يقدر على كذا وكذا وفلان يقدر على كذا وكذا، ومقدرة هذا دون مقدرة هذا) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ وهذا مثل آخر. فالأول مثل العاجز عن الكلام، وعن الفعل الذي لا يقدر على شيء، والآخر المتكلم الآمر بالعدل الذي هو على صراط مستقيم فهو عادل في أمره مستقيم في فعله.

فبين أن التفضيل بالكلام المتضمن للعدل والعمل المستقيم، فإن مجرد الكلام والعمل قد يكون محموداً، وقد يكون مذموماً، فالمحمود هو الذي يستحق صاحبه الحمد، فلا يستوي هذا والعاجز عن الكلام والفعل) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ

---

(١) الفتاوى (٥/ ٧٥).
(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٧٩ ـ ٨٠).
(٣) مجموع الفتاوى (٨/ ١٥).
(٤) مجموع الفتاوى (٦/ ٨٠).

﴿بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ فعاب الصنم بأنه أبكم لا يقدر على شيء إذ كان من المعلوم أن العجز عن النطق والفعل صفة نقص، فالنطق والقدرة صفة كمال) ا.هـ[1].

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾.

(وأما تمثيلهم ذلك بقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ أي وتقيكم البرد، فعنه جوابان:

«أحدهما»: أنه ليس هناك شرط علق به الحكم بخلاف هذا الموضع، فإنه إذا علق الأمر بشرط وكان مأموراً به في حال وجود الشرط كما هو مأمور به في حال عدمه، كان ذكر الشرط تطويلاً للكلام تقليلاً للفائدة وإضلالاً للسامع.

وجمهور النّاس على أن مفهوم الشرط حجة، ومن نازع فيه يقول: سكت عن غير المعلق، لا يقول: إن اللفظ دل على السكوت كما دل على المنطوق. فهذا لا يقوله أحد.

«الثاني»: أن قوله: ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ على بابه، وليس في الآية ذكر البرد. وإنما يقول «إن المعطوف محذوف» هو الفراء وأمثاله ممن أنكر عليهم الأئمة، حيث يفسرون القرآن بمجرد ظنهم وفهمهم لنوع من علم العربية عندهم، وكثيراً لا يكون ما فسروا به مطابقاً.

وليس في الكلام ما يدل على ذكر البرد، ولكن الله ذكر في هذه السورة إنعامه على عباده، وتسمى «سورة النعم». فذكر في أولها أصول النعم التي لا بد منها ولا تقوم الحياة إلا بها، وذكر في أثنائها تمام النعم.

وكان ما يقي البرد من أصول النعم، فذكر في أول السورة في قوله: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ﴾ [النحل: ٥]. فالدفء ما يدفئ ويدفع البرد.

والبرد الشديد يوجب الموت بخلاف الحر. فقد مات خلق من البرد بخلاف الحر، فإن الموت منه غير معتاد. ولهذا قال بعض العرب: البرد بؤس، والحر أذى.

فلما ذكر في أثنائها تمام النعم، ذكر الظلال وما يقي الحر، وذكر الأسلحة وما

(١) الفتاوى الأصفهانية (٥/ ٦٤).

يقي القتل، فقال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾، فذكر أنه يتم نعمته كما بيّن ذلك في هذه الآيات، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾، وفرق بين الظلال والأكنان؛ فإن الظلال يكون بالشجر ونحوه مما يظل ولا يكن، بخلاف ما في الجبال من الغيران، فإنه يظل ويكن.

فهذا في الأمكنة، ثم قال في اللباس: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾، فهذا في اللباس، واللباس والمساكن كلاهما تقي النّاس ما يؤذيهم من حر وبرد وعدو، وكلاهما تسترهم عن أعين الناظرين.

وفي البيوت خاصة يسكنون، كما قال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾. فلما ذكر البيوت المسكونة أمتن بكونه جعلها سكناً يسكنون فيها من تعب الحركات. وذكر أنه جعل لهم بيوتاً أخرى يحملونها معهم ويستخفونها يوم ظعنهم ويوم إقامتهم، فذكر البيوت الثقيلة التي لا تحمل والخفيفة التي تحمل، فتبين أن ما مثلوا به حجة عليهم) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾، وأراد الحر والبرد) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (وذلك أن البيوت سترة كالثياب التي على البدن، كما جمع بين اللباسين في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ فكل منهما وقاية من الأذى الذي يكون سموماً مؤذياً كالحر والشمس والبرد، وما يكون من بني آدم من النظر بالعين واليد وغير ذلك.

وقد ذكر في أول «سورة النحل» أصول النعم، وذكر هنا ما يدفع البرد فإنه من المهلكات، وذكر في أثنائها تمام النعم، وما يدفع الحر فإنه من المؤذيات، ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٥٩ ـ ١٦١).
(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٥٤).
(٣) مجموع الفتاوى (١٥/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠).

﴿ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ فذكر في هذا الموضع ما يحتاجون إليه لدفع ما قد يؤذيهم.

وذكر في أول السورة ما يضطرون إليه لدفع ما يضرهم، فقال: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾﴾ [النحل] فذكر ما يستدفئون به، ويدفعون به البرد، لأن البرد يهلكهم، والحر يؤذيهم؛ ولهذا قال بعض العرب: البرد بؤس، والحر أذى؛ ولهذا السبب لم يذكر في الآية الأخرى وقاية البرد، فإن ذلك تقدم في أول السورة، وهو ذكر في أثناء السورة ما أتم به النعمة، وذكر في أول السورة أصول النعم، ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾) ا.هـ[1].

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

(لأن قولنا: هذا في كتاب الله، يعم ما هو فيه بالخصوص أو بالعموم، وعلى هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ وقوله: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [يونس: ٣٧] وقوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] على قول من جعل الكتاب هو القرآن. وأما على قول من جعله اللوح المحفوظ: فلا يجيء ههنا) ا.هـ[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

(﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ وإيتاء ذي القربى هو من العدل والإحسان، كما أن الفحشاء والبغي من المنكر) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ أمرهم أن يوفوا بالعقود التي كانوا يتعاقدون بها، وكانوا يسمونها تحالفاً، ويسمون الرجل حليفاً، وقال: ﴿وَلَا تَنقُضُوا

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/ ١٥١ ـ ١٥٢).
(٢) القواعد النورانية (٢٣٠ ـ ٢٣١).
(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٧٤).

﴿ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ ولم يكن بصيغة القسم التي ذكرها النحاة. ولهذا لم يقل: وقد أقسمتم بالله، بل قال: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ كما عاهد موسى عليه السلام صاحب مدين على النكاح بخدمته المدة المشروطة، وقال موسى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٨] ولم يتقاسما بالله) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿وَلَا تَنقُضُوا ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ يعني العهود) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (وقال سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ والأيمان: جمع يمين، وكل عقد فإنه يمين. قيل: سمي بذلك لأنهم كانوا يعقدونه بالمصافحة باليمين، يدل على ذلك قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة]) ا.هـ[٣].

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

(وهم لا يعدمون، بل يموتون، ويهلكون، وكما قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ﴾، فإذا أنفده الرجل فقد نفد ما عنده، إن كان لم يعدم، بل انتقل من حال إلى حال) ا.هـ[٤].

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

---

(١) نظرية العقد (٦٥).
(٢) الفتاوى (٣/٢١٩).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٩/١٣٩).
(٤) الرد على من قال بفناء الجنة والنار (٥٦ ـ ٥٧).

(وربط السعادة مع إصلاح العمل به في مثل قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ وقوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء]) ا.هـ[1].

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾.

(فالشيطان يريد بوساوسه أن يشغل القلب عن الانتفاع بالقرآن؛ فأمر الله القارئ إذا قرأ القرآن، أن يستعيذ منه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ فإن المستعيذ بالله مستجير به، لاجئ إليه، مستغيث به من الشيطان؛ فالعائذ بغيره مستجير به؛ فإذا عاذ العبد بربه كان مستجيراً به متوكلاً عليه فيعيذه الله من الشيطان ويجيره منه) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ إلى قوله: ﴿لِّسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ فقد بين سبحانه أن القرآن الذي يبدل منه آية مكان آية نزله روح القدس وهو جبريل ـ وهو الروح الأمين كما ذكر ذلك في موضع آخر ـ من الله بالحق، وبيّن بعد ذلك أن من الكفار من قال: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ كما قال بعض المشركين: يعلمه رجل بمكة أعجمي، فقال تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ أي الذي يضيفون إليه هذا التعليم أعجمي ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾.

ففي هذا ما يدل على أن الآيات التي هي لسان عربي مبين. نزلها روح القدس من الله بالحق كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأنعام: ١١٤] والكتاب الذي أنزل مفصلاً هو القرآن العربي باتفاق الناس. وقد أخبر أن الذين آتاهم الكتاب يعلمون أنه منزل من الله بالحق، والعلم لا يكون إلا حقاً فقال: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ ولم يقل يقولون، فإن العلم لا يكون إلا حقاً بخلاف القول، وذكر علمهم ذكر مستشهد به) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٥).
(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٨٣).
(٣) مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٨ ـ ٣٩).

إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾، فأخبر عما افتراه بعضهم، من قوله: إنما يعلمه هذا القرآن بشر.

وكان بمكة مولى أعجمي لبعض قريش قيل: إنه مولى لبني الحضرمي، والنبي لا يحسن أن يتكلم بلسان العجمي، وذاك لا يحسن أن يتكلم بهذا الكلام العربي. فلما قالوا: إنه افترى هذا القرآن، وأنه علمه إياه بشر، قال تعالى: ﴿... لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ﴾.

أي يضيفون إليه هذا التعليم، وينسبونه إليه، وعبر عنه بلفظ الإلحاد، لما فيه من الميل، فقال: لسان هذا الشخص الذي قالوا: إنه يعلمه القرآن، لسان أعجمي، وهو لم يمكنهم أن يضيفوا هذا التعليم إلى رجل عربي، بل إلى هذا الأعجمي، لكونه كان يجلس - أحياناً - إلى النبي ﷺ، وذلك الأعجمي لا يمكنه التكلم بهذا الكلام العربي، بل هو أعجمي، ومحمد لا يعرف بالعجمية، لكن غاية ذاك الأعجمي - كعبد بني الحضرمي -: أن يعرف قليلاً من كلام العرب، الذي يحتاج إليه في العادة، مثل الألفاظ التي يحتاج إليها في غالب الأوقات، كلفظ الخبز، والماء، والسماء، والأرض، ولا يعرف أن يقرأ سورة واحدة من القرآن.

فبيَّن سبحانه ظهور كذبهم فيما افتروه، ولم يقل أحد منهم ما يمكن أن يكون شبهة من تعلمه أنباء الغيب من علماء أهل الكتاب ونحو ذلك، وإنما قالوا ما ظهر بطلانه لكل أحد، ولم ينقل عن أحد منهم أنه قال قولاً يخفى بطلانه، بل ما يظهر كذبه لكل أحد) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (والله سبحانه تكلم بالقرآن العربي، وبالتوراة العبرية، فالقرآن العربي كلام الله، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ إلى قوله: ﴿لِّسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ فقد بين سبحانه أن القرآن الذي يبدل منه آية مكان آية

(١) الجواب الصحيح (٥/ ٣٣٠ - ٣٣٣).

نزله روح القدس وهو جبريل - وهو الروح الأمين كما ذكر ذلك في موضع آخر - من الله بالحق، وبيّن بعد ذلك أن من الكفار من قال: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ كما قال بعض المشركين يعلمه رجل بمكة أعجمي، فقال تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ أي الذي يضيفون إليه هذا التعليم أعجمي ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾.

ففي هذا ما يدل على أن الآيات التي هي لسان عربي مبين، نزلها روح القدس من الله بالحق كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأنعام] والكتاب الذي أنزل مفصلاً هو القرآن العربي باتفاق الناس، وقد أخبر أن الذين آتاهم الكتاب يعلمون أنه منزل من الله بالحق، والعلم لا يكون إلا حقاً فقال: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ ولم يقل يقولون، فإن العلم لا يكون إلا حقاً بخلاف القول، وذكر علمهم ذكر مستشهدٍ به) ا.هـ[1].

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

قال رحمه الله: (وقوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فالتبديل الذي صرحوا بأنه منفّر ونفروا به عنه لم يكن مما يجب نفيه عنه، فكيف بالرجوع إلى الحق، الذي لم يُعْلَمْ أنهم نفروا منه، وهو أقل تنفيراً؟! لأن النسخ فيه رجوع عن الحق إلى حق، وهذا رجوع إلى حق من غير حق) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ فأخبر سبحانه أنه نزله روح القدس وهو الروح الأمين، وهو جبريل من الله بالحق، ولم يقل أحد من السلف: إن النبي ﷺ سمعه من الله، وإنما قال ذلك بعض المتأخرين) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (إن الله تعالى قال: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٨ - ٣٩).
(٢) منهاج السنة (٢/ ٤١٠).
(٣) مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٩٨).

بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ فأخبر أن جبريل نزله من الله لا من هواء ولا من لوح) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل] وقوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ﴾ إلى قوله: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ يبين أن روح القدس نزل بآيات القرآن من ربه، وبعض الكفار لما زعم أنه يتعلم من بشر قال الله تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ﴾ أي يضيفون إليه التعليم ﴿أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٞ﴾ فدل على أن هذا اللسان العربي المبين تعلمه من الملائكة، ولم يتعلمه من بشر ولا من تلقاء نفسه، بل جاءه به روح القدس، وروح القدس هو جبريل، وهو الروح الأمين، فإنه أخبر أن جبريل نزل على قلبه، وأخبر أن الروح الأمين نزل به عليه، فعلم أن جبريل هو الروح الأمين) ا.هـ[2].

﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

(قال: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ وروح القدس هو جبريل) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٞ ﴿١٠٣﴾﴾ فهذا الكلام في القرآن الذي قالوا: إنما يعلمه إليه بشر، وقد أبطل الله ذلك بقوله: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٞ﴾ فدل على أن المراد به نفس القرآن العربي، الذي يمتنع أن يعلمه إياه، ذلك الأعجمي، الذي ألحدوا إليه، وقد قيل: إنه رجل بمكة مولى لابن الحضرمي، والمعاني المجردة لا يمتنع تعلمها من الأعجمي، بخلاف هذا القرآن العربي،

(١) الفتاوى (التسعينية) (٥/ ٢٦٩).
(٢) الرد على الأخنائي (٢٠٩).
(٣) مجموع الفتاوى (١١/ ٤٨٠) (١٢/ ٥٥٤).

فدل أن هذا القرآن نزله روح القدس من الله تبارك وتعالى، ومثله قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤]) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾، كان بعض المشركين يقولون: إن محمداً إنما يتعلم القرآن من عبد لبني الحضرمي، فقال الله تعالى: لسان الذي يضيفون إليه القرآن لسان أعجمي وهذا لسان عربي مبين.

وهذا يبين أن محمداً بلغ القرآن لفظه ومعناه لم ينزل عليه معان مجردة؛ إذ لو كان كذلك لأمكن أن يقال: تلقى من هذا الأعجمي معان صاغها بلسانه، فلما ذكر قوله: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ بعد قوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ دل ذلك على أن روح القدس نزل بهذا اللسان العربي المبين) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (كان بعض المشركين يزعم أن النبي ﷺ تعلمه من بعض الأعاجم الذين بمكة، إما عبد ابن الحضرمي وإما غيره، كما ذكر ذلك المفسرون، فقال تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ - أي يضيفون إليه التعليم لسان - ﴿أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾، فكيف يتصور أن يعلمه أعجمي وهذا الكلام عربي؟ وقد أخبر أنه نزله روح القدس من ربك بالحق، فهذا بيان أن هذا القرآن العربي الذي تعلمه من غيره لم يكن هو المحدث لحروفه ونظمه؛ إذ يمكن لو كان كذلك أن يكون تلقى من الأعجمي معانيه وألّف هو حروفه، وبيان أن هذا الذي تعلمه من غيره نزل به روح القدس من ربك بالحق، يدل على أن القرآن جميعه منزل من الرب ﷻ لم ينزل معناه دون حروفه) ا.هـ[٣].

وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى:

(قوله ﷻ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الآيتين لفظ «الإنزال» في

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٥٤٤ ـ ٥٤٥).
(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٣٦).
(٣) مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٦١).

القرآن يرد «مقيداً» بأنه منه كالقرآن، وبالإنزال من السماء، ويراد به العلو كالمطر و«مطلقاً» فلا يختص بنوع، بل يتناول إنزال الحديد من الجبال، والإنزال من ظهور الحيوان، وغير ذلك، فقوله: ﴿نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ بيان لنزول جبريل به من الله، كقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشعراء] أي أنه مؤتمن لا يزيد عليه ولا ينقص منه، فإن الخائن قد يغير الرسالة.

وفيها دلالة على أمور:

منها: بطلان قول من زعم خلقه في جسم كالجهمية من المعتزلة وغيرهم، فإن السلف يسمون من قال بخلقه ونفى الصفات والرؤية جهمياً، فإن جهماً أول من ظهرت عنه بدعة نفي الأسماء والصفات وبالغ في ذلك، فله مزية المبالغة والابتداء بكثرة إظهاره، وإن كان جعد سبقه إلى بعض ذلك، لكن المعتزلة وإن وافقوه في البعض فهم يخالفونه في مثل مسائل الإيمان والقدر وبعض الصفات، وجهم يقول: إن الله لا يتكلم أو يتكلم مجازاً، وهم يقولون يتكلم حقيقة، ولكن قولهم في المعنى قوله، وهو ينفي الأسماء كالباطنية والفلاسفة.

ومنها: بطلان قول من زعم أنه فاض من العقل الفعال أو غيره، وهذا أعظم كفراً وضلالاً من الذي قبله.

ومنها: إبطال قول الأشعرية أن كلام الله معنى وهذا العربي خلق ليدل عليه، سواء قالوا: خلق في بعض الأجسام، أو ألهمه جبريل، أو أخذه من اللوح، فإن هذا لا بد له من متكلم تكلم به أولاً: وهذا يوافق قول من قال إنه مخلوق، لكن يفارقه من وجهين:

أحدهما: أن أولئك يقولون: المخلوق كلام الله وهؤلاء يقولون: إنه كلام مجازاً، وهذا أشر من قول المعتزلة، بل هو قول الجهمية المحضة، لكن المعتزلة يوافقونهم في المعنى.

الثاني: أنهم يقولون: لله كلام قائم بذاته، والخلقية يقولون: لا يقوم بذاته، فإن الكلابية خير منهم في الظاهر، لكن في الحقيقة لم يثبتوا كلاماً له غير المخلوق.

والمقصود أن الآية تبطل هذا و«القرآن» اسم للعربي، لقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ وأيضاً فقوله: ﴿نَزَّلَهُۥ﴾ عائد إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ فالذي نزل الله هو الذي نزله روح القدس، وأيضاً قال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ الآية. وهم يقولون:

إنما يعلمه هذا القرآن العربي بشر لقوله: ﴿لِسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ ... إلخ، فعلم أن محمداً لم يؤلف نظماً بل سمعه من روح القدس، وروح القدس الذي نزل به من الله، فعلم أنه سمعه منه، لم يؤلفه هو.

ونظيرها قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤]، و(الكِتَابَ) اسم للقرآن بالضرورة والاتفاق، فإنهم أو بعضهم يفرقون بين كتاب الله وكلامه، ولفظ الكتاب يراد به المكتوب فيه، فيكون هو الكلام، ويراد به ما يكتب فيه، كقوله: ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾ [الواقعة]، وقوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣] وقوله: ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤] إخبار مستشهد بهم، فمن لم يقر به منا فهم خير منه من هذا الوجه.

وهذا لا ينافي ما جاء عن ابن عباس وغيره: أنه أنزل في ليلة القدر إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ولا ينافي أنه مكتوب في اللوح قبل نزوله، سواء كتبه الله قبل أن يرسل به جبريل، أو بعده، فإذا أنزل جملة إلى بيت العزة فقد كتبه كله قبل أن ينزله، والله يعلم ما كان وما يكون، وما لا يكون لو كان كيف يكون، وهو قد كتب المقادير وأعمال العباد قبل أن يعملوها، ثم يأمر بكتابتها بعد أن يعملوها، فيقابل بين الكتابة المتقدمة والمتأخرة فلا يكون بينهما تفاوت، هكذا قال ابن عباس وغيره. فإذا كان ما يخلقه بائناً عنه قد كتبه قبل أن يخلقه، فكيف لا يكتب كلامه الذي يرسل به ملائكته قبل أن يرسلهم؟.

ومن قال: إن جبريل أخذه عن الكتاب لم يسمعه من الله فهو باطل من وجوه: منها: أنه سبحانه كتب التوراة لموسى بيده، فبنو إسرائيل أخذوا كلامه من الكتاب الذي كتبه، ومحمد عن جبريل عن الكتاب فهم أعلى بدرجة، ومن قال: إنه ألقى إلى جبريل معاني وعبر بالعربي فمعناه أنه ألهمه إلهاماً، وهذا يكون لآحاد المؤمنين كقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى﴾ [المائدة: ١١١]، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: ٧] فيكون هذا أعلى من أخذ محمّد ﷺ.

وأيضاً: فإنه سبحانه قال: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء] وهذا يدل على أمور: على أنه يكلم

العبد تكليماً زائداً على الوحي الذي هو قسيم التكيلم الخاص.

فإن لفظ التكليم والوحي كل منهما ينقسم إلى عام وخاص، فالتكليم العام هو المقسوم في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١] الآية، فالتكليم المطلق قسيم الوحي الخاص، لا قسماً منه، وكذلك الوحي يكون عاماً فيدخل فيه التكليم الخاص، كقوله: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ١٣] ويكون قسيماً له كما في الشورى، وهذا يبطل قول من قال: إنه معنى واحد قائم بالذات، فإنه لا فرق بين العام وما لموسى، وفرق سبحانه في «الشورى» بين الإيحاء وبين التكليم من وراء حجاب وبين إرسال رسول فيوحي بإذنه ما يشاء)[1].

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

(وقال سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عكرمة: خرج ناس من المسلمين - يعني من المهاجرين - فأدركهم المشركون، ففتنوهم، فأعطوهم الفتنة، فنزلت فيهم ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠] ونزل فيهم ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ الآية، ثم إنهم خرجوا مرة أخرى فانقلبوا حتى أتوا المدينة، فأنزل الله فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟﴾ إلى آخر الآية) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (وقال لما ذكر الردة التي استثنى منها المكره ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ ثم قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾، نزلت في الذين فتنهم المشركون حتى أصابوهم، ثم هاجروا بعد ذلك وجاهدوا وصبروا، فأخبر الله أنه غفر لهم ورحمهم، فعلم أن تلك الفتنة كانت من ذنوبهم، وذلك إما لعدم الإكراه التام المبيح للنطق بكلمة الكفر، وإما لعدم الطمأنينة بالإيمان، فلا يستحق صاحبه الوعيد) ا.هـ[3].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٢١ - ٢٢٥). (٢) الصارم المسلول (٣٢٤).
(٣) الاستقامة (٢/ ٣٣٨ - ٣٣٩).

وقال رحمه الله: (وكذلك قال في قوله: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾ ومن كفر بالله من بعد إيمانه من غير إكراه فهو مرتد، قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٠﴾﴾) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (وقد ذم الله في كتابه من يرتد ويفتتن ولو أكره، وهذا هو الذي ذمه الله بقوله: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾ وكذلك يذم من يترك الواجب الظاهر ويفعل المحرم الظاهر عندما يصيبه من الأذى والفتن، كما قال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١٧] الآية، كما تقدم) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (وأما قوله: «إنه استحق أن يوصف بذلك دون غيره»[3]، ففرية على أهل السنة؛ فإنه ليس فيهم من يقول: إن هذا من خصائص معاوية، بل هو واحد من كتّاب الوحي. وأما عبد الله بن سعد بن أبي سرح فارتد عن الإسلام، وافترى على النبي ﷺ، ثم إنه عاد إلى الإسلام، وأما قوله: «إنه نزل فيه: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾ الآية».

فهو باطل؛ فإن هذه الآية نزلت بمكة، لما أكره عمّار وبلال على الكفر. وردة هذا كانت بالمدينة بعد الهجرة، ولو قدر أنه نزلت فيه هذه الآية؛ فالنبي ﷺ قد قبل إسلامه وبايعه، وقد قال تعالى: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٨٩﴾﴾ [آل عمران]) ا.هـ[4].

وقال رحمه الله: (فأباح سبحانه عند الإكراه أن ينطق الرجل بالكفر بلسانه إذا كان قلبه مطمئناً بالإيمان، بخلاف من شرح بالكفر صدراً. وأباح للمؤمنين أن يتقوا من الكافرين تقاة، مع نهيه لهم عن موالاتهم. وعن ابن عباس: «إن التقية باللسان»[5]) ا.هـ[6].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٢٨).
(٢) الاستقامة (٢/ ٣٣٧).
(٣) هو قول الرافضي في منهاج السنة.
(٤) منهاج السنة (٤/ ٤٤٢ ـ ٤٤٣).
(٥) ابن جرير (٦٨٢٩) وكذلك ذكر عن أبي العالية والضحاك وغيرهم وفيه رجل مبهم لم يُسم والله أعلم.
(٦) الاستقامة (٢/ ٣٢٠).

وقال رحمه الله: (يبين ذلك قوله: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٠٨ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٠٩﴾ فقد ذكر تعالى من كفر بالله من بعد إيمانه وذكر وعيده في الآخرة، ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾. وبين تعالى أن الوعيد استحقوه بهذا. ومعلوم أن باب التصديق والتكذيب والعلم والجهل ليس هو باب الحب والبغض، وهؤلاء يقولون إنما استحقوا الوعيد لزوال التصديق والإيمان من قلوبهم، وإن كان ذلك قد يكون سببه حب الدنيا على الآخرة، والله ﷻ جعل استحباب الدنيا على الآخرة هو الأصل الموجب للخسران، واستحباب الدنيا على الآخرة قد يكون مع العلم والتصديق بأن الكفر يضر في الآخرة، وبأنه ماله في الآخرة من خلاق.

و«أيضاً» فإنه سبحانه استثنى المكره من الكفار، ولو كان الكفر لا يكون إلا بتكذيب القلب وجهله لم يستثن منه المكره؛ لأن الإكراه على ذلك ممتنع فعلم أن التكلم بالكفر كفر، لا[1] في حال الإكراه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾ أي لاستحبابه الدنيا على الآخرة، ومنه قول النبي ﷺ: «ويصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا»[2] والآية نزلت في عمار بن ياسر، وبلال بن رباح[3]، وأمثالهما من المؤمنين المستضعفين لما أكرههم المشركون على سب النبي ﷺ، ونحو ذلك من كلمات الكفر فمنهم من أجاب بلسانه كعمار، ومنهم من صبر على المحنة كبلال، ولم يكره أحد منهم على خلاف ما في قلبه بل أكرهوا على التكلم، فمن تكلم بدون الإكراه، لم يتكلم إلا وصدره منشرح به) ا.هـ[4].

---

(١) كذا في الأصل، ولعل صوابها: «إلا» أو يقصد أن التكلم بالكفر كفر في غير حال الإكراه.

(٢) الترمذي (٩١٢٧)، والحاكم (٣/ ٥٢٥، ٥٣١)، والفريابي في صفة المنافق (٨٤) والحديث صحيح.

(٣) يراجع لذلك ابن جرير (١٤/ ١٨٠)، وغيره.

(٤) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٥٩ ـ ٥٦١).

وقال رحمه الله: (قال الله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾ وهذه الآية مما يدل على فساد قول جهم ومن اتبعه، **فإنه جعل كل من تكلم بالكفر، من أهل وعيد الكفار، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان.**

فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾ قيل: وهذا موافق لأولها فإنه من كفر من غير إكراه فقد شرح بالكفر صدراً، وإلا ناقض أول الآية آخرها، ولو كان المراد بمن كفر هو الشارح صدره، وذلك يكون بلا إكراه، لم يستثن المكره فقط، بل كان يجب أن يستثني المكره وغير المكره إذا لم يشرح صدره، وإذا تكلم بكلمة الكفر طوعاً فقد شرح بها صدراً وهي كفر، وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ٦٤ وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ٦٦﴾ [التوبة].

فقد أخبر أنهم كفروا بعد إيمانهم مع قولهم: إنا تكلمنا بالكفر من غير اعتقاد له، بل كنا نخوض ونلعب، وبيَّن أن الاستهزاء بآيات الله كفر، ولا يكون هذا إلا ممن شرح صدره بهذا الكلام، ولو كان الإيمان في قلبه منعه أن يتكلم بهذا الكلام) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (قال: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٠٨ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٠٩ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٠﴾، فبين أن الذين هاجروا إلى دار الإسلام بعد أن فُتنوا عن دينهم بالكفر بعد الإسلام وجاهدوا وصبروا فإن الله يغفر لهم ويرحمهم، ومن غفر له ذنبه مطلقاً لم يعاقبه في الدنيا ولا في الآخرة.

وقال سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عكرمة: خرج ناس من المسلمين

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٢٠).

ـ يعني من المهاجرين ـ فأدركهم المشركون، ففتنوهم، فأعطوهم الفتنة، فنزلت فيهم ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ الآية [العنكبوت: ١٠]، ونزل فيهم: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ الآية، ثم إنهم خرجوا مرة أخرى فانقلبوا حتى أتوا المدينة، فأنزل الله فيهم[١]: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟﴾ إلى آخر الآية ولأنه سبحانه قال: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٤]، فعلم أن من لم يمت وهو كافر من المرتدين لا يكون خالداً في النار) ا.هـ[٢].

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

(وكعبد الله بن أبي سرح، والذين خرجوا مع الكفار يوم بدر، وأنزل فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾. فهؤلاء عادوا إلى الإسلام، وعبد الله بن أبي سرح عاد إلى الإسلام عام الفتح، وبايعه النبي ﷺ ولم يأمر أحداً منهم بإعادة ما ترك حال الكفر في الردة، كما لم يكن يأمر سائر الكفار إذا أسلموا) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (وقد قال الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ نزلت هذه الآية في طائفة من الصحابة كان المشركون فتنوهم عن دينهم ثم تاب الله عليهم، فهاجروا إلى الله ورسوله، وجاهدوا وصبروا) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (وهكذا قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يدخل في معناها كل من فتنه الشيطان عن دينه أو أوقعه في معصية ثم هجر السيئات وجاهد نفسه وغيرها من العدو، وجاهد المنافقين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك، وصبر على ما أصابه من قول أو فعل) ا.هـ[٥].

---

(١) مرّ تخريجه.
(٢) الصارم المسلول (٣٢٤).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٤٦ ـ ٤٧).
(٤) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٠٣).
(٥) مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٨٤).

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

(وكذلك قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾، هم الذين كفروا بما أنزل الله من الكتاب والرسل، وتلك نعمة الله المعظمة) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ الآية نزلت في مكة لما كانت دار كفر وهي ما زالت في نفسها خير أرض الله وأحب أرض الله إليه، وإنما أراد سكانها) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ فجعل الخوف والجوع مذوقاً؛ وأضاف إليهما اللباس ليشعر أنه لبس الجائع والخائف فشمله وأحاط به إحاطة اللباس باللابس) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (فإذا قيل في قوله تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾: إن أصل الذوق بالفم. قيل: ذلك ذوق الطعام؛ فالذوق يكون للطعام ويكون لجنس العذاب كما قال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة]، وقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان]، وقوله: ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨]، فقوله: ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ صريح في ذوق مس العذاب، لا يحتمل ذوق الطعام.

ثم الجوع والخوف إذا لبس البدن كان أعظم في الألم؛ بخلاف القليل منه، فإذا قال: أذاقها الله لباس الجوع والخوف[4] فإنه لم يكن يدل على لبسه لصاحبه وإحاطته به، فهذه المعاني تدل عليها هذه الألفاظ دون ما إذا قيل جاعت وخافت؛ فإنه يدل على جنس لا على عظم كيفيته وكميته؛ فهذا من كمال البيان، والجميع إنما استعمل فيه اللفظ في معناه المعروف في اللغة؛ فإن قوله: ذوق لباس الجوع والخوف ليس هو ذوق الطعام، وذوق الجوع ليس هو ذوق لباس الجوع.

ولهذا كان تحرير هذا الباب هو من علم البيان الذي يعرف به الإنسان بعض قدر

---

(١) جامع الرسائل (٢/ ٣٤٧).
(٢) مجموع الفتاوى (١٨/ ٢٨٢).
(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٣٤).
(٤) كذا في الأصل، والصواب حذف «لباس».

القرآن، وليس في القرآن لفظ إلا مقرون بما يبين به المراد. ومن غلط في فهم القرآن فمن قصوره أو تقصيره) ا.هـ[١].

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ أي كان مؤمناً وحده وكان النّاس كفاراً جميعاً. وفي صحيح البخاري: «أنه قال لسارة: ليس على الأرض اليوم مؤمن غيري وغيرك»[٢]) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ و«الأُمَّة» هو معلم الخير الذي يؤتم به، كما أن «القدوة» الذي يقتدى به) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ والأمة هو القدوة الذي يؤتم به، وكان ابن مسعود يقول: إن معاذاً كان أُمَّة قانتاً لله حنيفاً، فيقولون: إن إبراهيم، فيقول: إن معاذاً، فيعلمون أنه لم يرد التلاوة، وإنما أراد أن يعرفهم أن معاذاً كان إماماً»[٥]) ا.هـ[٦].

وقال رحمه الله: («الأمة» الذي يؤتم به كما أن «القدوة» هو الذي يقتدى به، وهو «الإمام» كما في قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، وهو «القانت» والقنوت دوام الطاعة وهو الذي يطيع الله دائماً، والحنيف المستقيم إلى ربه دون ما سواه) ا.هـ[٧].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ والأمة القدوة الذي يؤتم به، فإبراهيم هو إمام المؤمنين الذي أمروا أن يأتموا به، وللمسلمين به أسوة حسنة. وقد قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ [الممتحنة: ٤] فجعل للمسلمين في إبراهيم أسوة حسنة) ا.هـ[٨].

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

(وكذلك لفظ «الصالح» و«الشهيد» و«الصديق»: يذكر مفرداً؛ فيتناول النبيين، قال

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٤٧٣ ـ ٤٧٤).
(٢) البخاري (٣٣٥٨).
(٣) مجموع الفتاوى (١١/ ٤٣٦).
(٤) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٠٢) (١٩/ ١٠٦).
(٥) حلية الأولياء (١/ ٢٣٠)، والاستيعاب (٣/ ١٤٠٧) وتهذيب الكمال (٢٨/ ١١٠).
(٦) الرد على الأخنائي (١٥٣).
(٧) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٣٩).
(٨) نظرية العقد (١١٠).

تعالى في حق الخليل: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، وقال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾. وقال الخليل: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الشعراء]. وقال يوسف: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]. وقال سليمان: ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]) ا.هـ[١].

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

(والله أمر محمداً وأمته أن يكونوا حنفاء، فقال في النحل، وهي مكية: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ فكان الحج إذ ذاك داخلاً في الحنيفية على سبيل الاستحباب والتمام لا على سبيل الوجوب) ا.هـ[٢].

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

(قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ﴾. فالحكمة تعريف الحق، فيقبلها من قبل الحق بلا منازعة. ومن نازعه هواه وعظ بالترغيب والترهيب.

فالعلم بالحق يدعو صاحبه إلى اتباعه، فإن الحق محبوب في الفطرة، وهو أحب إليها، وأجل فيها، وألذ عندها، من الباطل الذي لا حقيقة له، فإن الفطرة لا تحب ذاك) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (وأيضاً فالقرآن ليس فيه أنه قال: «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل»، بل قال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى﴾. وذلك لأن الإنسان له ثلاثة أحوال:

إما أن يعرف الحق ويعمل به، وإما أن يعرفه ولا يعمل به، وإما أن يجحده، فأفضلها أن يعرف الحق ويعمل به.

والثاني: أن يعرفه لكن نفسه تخالفه فلا توافقه على العمل به.

والثالث: من لا يعرفه بل يعارضه.

فصاحب الحال الأول هو الذي يُدعى بالحكمة، فإن الحكمة هي العلم بالحق

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٧).
(٢) تفسير آيات أشكلت (١/ ٣٩٩).
(٣) مجموع الفتاوى (١٦/ ٣٣٨).

والعمل به. فالنوع الأكمل من النّاس من يعرف الحق ويعمل به، فَيُدْعَون بالحكمة، والثاني من يعرف الحق لكن تخالفه نفسه، فهذا يوعظ الموعظة الحسنة، فهاتان هما الطريقان، الحكمة والموعظة. وعامة النّاس يحتاجون إلى هذا وهذا. فإن النفس لها هوى تدعوها إلى خلاف الحق وإن عرفته فالناس يحتاجون إلى الموعظة الحسنة وإلى الحكمة. فلا بد من الدعوة بهذا وهذا.

وأما الجدل فلا يدعى به، بل هو من باب دفع الصائل، فإذا عارض الحق معارض جودل بالتي هي أحسن، ولهذا قال: «وجادلهم»، فجعله فعلاً مأموراً به مع قوله: «ادعهم». فأمره بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وأمره أن يجادل بالتي هي أحسن، وقال في الجدال «بالتي هي أحسن» ولم يقل «بالحسنة»كما قال في الموعظة، لأن الجدال فيه مدافعة ومغاضبة، فيحتاج أن يكون بالتي هي أحسن حتى يصلح ما فيه من الممانعة والمدافعة، والموعظة لا تدافع كما يدافع المجادل، فما دام الرجل قابلاً للحكمة أو الموعظة الحسنة أو لهما جميعاً لم يحتج إلى مجادلة، فإذا مانع جودل بالتي هي أحسن.

والمجادلة بعلم كما أن الحكمة بعلم، وقد ذم الله من يجادل بغير علم فقال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [آل عمران: ٦٦]. والله لا يأمر المؤمنين أن يجادلوا بمقدمة يسلمها الخصم إن لم تكن علماً، فلو قدر أنه قال باطلاً لم يأمر الله أن يحتجَّ عليهم بالباطل، لكن هذا قدر يُفعل لبيان فساد قوله وبيان تناقضه، لا لبيان الدعوة إلى القول الحق، والقرآن مقصوده بيان الحق ودعوة العباد إليه، وليس المقصود ذكر ما تناقضوا فيه من أقوالهم ليبين خطأ أحدهما لا بعينه. فالمقدمات الجدلية التي ليست علماً هذا فائدتها، وهذا يصلح لبيان خطأ النّاس مجملاً) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ ليس المراد به ما يذكرونه من القياس البرهاني والخطابي والجدلي. فإن الأقيسة التي هي عندهم برهانية قد تقدم بعض وصفها، وأنها لا تفيد قط إلا أمراً كلياً لا يدل على شيء معيّن. وتلك الكليات غالبها إنما توجد في الأذهان لا في الأعيان، والذي جاء به الرسول أمران: خبر وأمر.

(١) الرد على المنطقيين (٤٦٧ ـ ٤٦٩).

فأما الخبر، فإنه أخبر عن الله بأسمائه وصفاته المعينة، وهذا أمر يعترفون هم أنه لا يعرف ببرهانهم، وما أخبر به الرسول عن ربه ﷺ فهم من أبعد النّاس عن معرفته، وكفار اليهود والنصارى بعد النسخ والتبديل أقرب إلى الرسول فيه منهم إليه، وكذلك ما أخبر به عن الملائكة، والعرش والكرسي، والجنة والنار، ليس في ذلك شيء يمكن معرفته بقياسهم. وليس المراد بالعرش الفلك التاسع، ولا بالكرسي الثامن، كما قد بسط في موضع آخر) ا.هـ[1].

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

(وقد قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ وأباح لهم ﷻ إذا عاقبوا الظالم أن يعاقبوه بمثل ما عاقب به، ثم قال: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ فعلم أن الصبر عن عقوبته بالمثل خير من عقوبته. فكيف يكون مسقطاً للأجر أو منقصاً له؟!) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (ثم إنه حيث أباح المعاقبة قال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾، فأخبر أن صبره بالله. فالله هو الذي يعينه عليه، فإن الصبر على المكاره بترك الانتقام من الظالم ثقيل على الأنفس، لكن صبره بالله كما أمره أن يكون لله في قوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾﴾ [المدثر]. لكن هناك ذكره في الجملة الطلبية الأمرية؛ لأنه مأمور أن يصبر لله لا لغيره. وهنا ذكره في الخبرية فقال: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾ فإن الصبر وسائر الحوادث لا تقع إلا بالله، ثم قد يكون ذلك وقد لا يكون فما لا يكون بالله لا يكون، وما لا يكون لله لا ينفع ولا يدوم، ولا يقال: واصبر بالله فإن الصبر لا يكون إلا بالله، لكن يقال: استعينوا بالله واصبروا، فنستعين بالله على الصبر) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (فأما التمثيل في القتل فلا يجوز إلا على وجه القصاص. وقد قال عمران بن حصين رضي الله عنه: ما خطبنا رسول الله ﷺ خطبة إلا أمرنا بالصدقة، ونهانا عن المثلة. حتى الكفار إذا قتلناهم، فإنا لا نمثل بهم بعد القتل، ولا نجدع آذانهم وأنوفهم، ولا نبقر بطونهم إلا أن يكونوا فعلوا ذلك بنا، فنفعل بهم مثل ما فعلوا، والترك أفضل كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ

---

(١) الرد على المنطقيين (٤٤٤ ـ ٤٤٥).
(٢) مجموع الفتاوى (٣٠/ ٣٦٢).
(٣) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٢٩).

لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ قيل إنها نزلت لما مثل المشركون بحمزة وغيره من شهداء أحد ﷺ، فقال النبي ﷺ: «لئن أظفرني الله بهم لأمثلن بضعفي ما مثلوا بنا» فأنزل الله هذه الآية[1] - وإن كانت قد نزلت قبل ذلك بمكة - مثل قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] وقوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤] وغير ذلك من الآيات التي نزلت بمكة، ثم جرى بالمدينة سبب يقتضي الخطاب، فأنزلت مرة ثانية، فقال النبي ﷺ: «بل نصبر»[2] وفي صحيح مسلم عن بريدة بن الحصيب ﷺ قال: كان النبي ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش أو في حاجة نفسه أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله تعالى وبمن معه من المسلمين خيراً، ثم يقول: اغزوا بسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، ولا تغلوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً»[3]) ا.هـ[4].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ الآية، فإذا قتل الرجل من يكافئه عمداً وعدواناً كان عليه القود، ثم يجوز أن يفعل به مثل ما فعل؛ كما يقوله أهل المدينة ومن وافقهم، كالشافعي وأحمد في إحدى الروايتين، بحسب الإمكان؛ إذا لم يكن تحريمه بحق الله، كما إذا رضخ رأسه، كما رضخ النبي ﷺ رأس اليهودي الذي رضخ رأس الجارية، كان ذلك أتم في العدل ممّن قتله بالسيف في عنقه، وإذا تعذر القصاص عدل إلى الدية، وكانت الدية بدلاً لتعذر المثل) ا.هـ[5].

﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

(وكذلك قوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ مقرون بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ وإخبارهم بأن الله معهم يوجب زوال الضيق من مكر عدوهم) ا.هـ[6].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

(وكذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ لا يراد به أنه معهم بالحلول؛ ولكن بالنصر والتوفيق والحياطة) ا.هـ[7].

---

(١) ابن جرير (١٤/ ١٩٦).
(٢) أحمد (٥/ ١٣٥) والحديث صحيح.
(٣) مرّ تخريجه.
(٤) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣١٤ - ٣١٥).
(٥) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٣٥١ - ٣٥٢).
(٦) منهاج السنة (٨/ ٤٦٤ - ٤٦٥).
(٧) مجموع الفتاوى (٥/ ٤٠٧).

سورة الإسراء

قال شيخ الإسلام في عموم سورة الإسراء:

(ونبينا ﷺ، لما أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى إنما أسريَ به ليرى من آيات ربه الكبرى، وهذا هو الذي كان من خصائصه، أن مسراه كان هذا كما قال تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥﴾ [النجم]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] قال ابن عباس[1]: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به، فهذا الذي كان من خصائصه ومن أعلام نبوته، وأما مجرد قطع تلك المسافة فهذا يكون لمن تحمله الجن، وقد قال العفريت لسليمان: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل: ٣٩]، وحمل العرش من القصر من اليمن إلى الشام أبلغ من ذلك: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤] فهذا أبلغ من قطع المسافة التي بين المسجدين في ليلة، ومحمد ﷺ أفضل من الذي عنده علم من الكتاب ومن سليمان، فكأن[2] الذي خصه الله به أفضل من ذلك، وهو أنه أسري به في ليلة ليريه من آياته، فالخاصة أن الإسراء كان ليريه من آياته الكبرى كما ﴿رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾ [النجم] فهذا، ما حصل مثله لا لسليمان ولا لغيره، والجن وإن قدروا على حمل بعض الناس في الهواء فلا يقدرون على إصعاده إلى السماء وإراءته آيات ربه الكبرى، فكان ما آتاه الله محمداً خارجاً عن قدرة الجن والإنس، وإنما كان الذي صحبه في معراجه جبريل الذي اصطفاه الله لرسالته، و﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] وكان المقصود من الإسراء أن يريه ما رآه من آياته الكبرى، ثم يخبر به

---

(١) سيأتي تخريجه في تفسير الآية ٦٠ من هذه السورة.

(٢) كذا في الأصل، والظاهر (فكان) بالألف فعلاً ماضياً، لأن المقصود ترجيح معجزة نبينا محمد ﷺ على ما أعطي سليمان عليه السلام.

الناس، فلما أخبر به، كذب به من كذب من المشركين، وصدق به الصديق وأمثاله من المؤمنين، فكان ذلك ابتلاء ومحنة للناس كما قال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] أي محنة وابتلاء للناس ليتميز المؤمن عن الكافر، وكان فيما أخبرهم به أنه رأى الجنة والنار وهذا مما يخوفهم به، قال تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠] والرسول لما أخبرهم بما رآه كذبوه في نفس الإسراء وأنكروا أن يكون أسريَ به إلى المسجد الأقصى، فلما سألوه عن صفته فوصفه لهم، وقد علموا أنه لم يره قبل ذلك وصدقه من رآه منهم، وكان ذلك دليلاً على صدقه في المسرى، فلم يمكنهم مع ذلك تكذيبه فيما لم يروه، وأخبر الله تعالى بالمسرى إلى المسجد الأقصى، لأنهم قد علموا صدقه في ذلك بما أخبرهم به من علاماته فلا يمكنهم تكذيبه في ذلك، وذكر أنه رأى من آيات ربه الكبرى ولم يعيّن ما رآه، وهو جبريل الذي رآه في صورته التي خلق عليها مرتين، لأن رؤية جبريل هي من تمام نبوته، ومما يبيّن أن الذي أتاه بالقرآن ملك لا شيطان كما قال في سورة «إذا الشمس كورت»: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير] ثم قال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [التكوير]) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (والنبي ﷺ لما أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى لم يكن المقصود مجرد وصوله إلى الأقصى بل المقصود ما ذكره الله بقوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١] كما قال: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجم] وما رآه مختص بالأنبياء لا يكون ذلك لمن خالفهم، ولا يريه الله تعالى ما أراه محمداً حين أسري به، وكذلك صلاته بالأنبياء في المسجد الأقصى وركوبه على البراق، هذا كله من خصائص الأنبياء) ا.هـ[2].

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾.

(ولهذا جاء التسبيح عند العجائب الدالة على عظمته، كقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ

(١) النبوات (١١٧ ـ ١١٨).
(٢) النبوات (٢٥٩).

أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ وأمثال ذلك) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (أن الإسراء كان بمكة كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (وقال: حدثنا أبو سعيد الأشج، ثنا حفص بن غياث، عن حجاج، عن ابن أبي مليكة، عن ابن عباس قال: ﴿سُبْحَٰنَ﴾ قال: تنزيه الله نفسه من السوء، وعن الضحاك عن ابن عباس في قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ قال عجب. وعن أبي الأشهب، عن الحسن قال: سبحان: اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه[٣].

وقد جاء عن غير واحد من السلف مثل قول ابن عباس: أنه تنزيه نفسه من السوء، وروي في ذلك حديث مرسل[٤].

وهو يقتضي تنزيه نفسه من فعل السيئات، كما يقتضي تنزيهه عن الصفات المذمومة) ا.هـ[٥].

وقال رحمه الله: (وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ (حوله) أرض الشام) ا.هـ[٦].

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ والمراد بعبده: عابده المطيع لأمره، وإلا فجميع المخلوقين عباد بمعنى أنهم معبَّدون مخلوقون مدبَّرون) ا.هـ[٧].

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الإنسان] و﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾.

فإن العبد تارة يعني به المعبَّد فيعم الخلق، كما في قوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم] وتارة يعني به العابد فيخص ثم يختلفون

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٦/ ١٧٧). (٢) مجموع الفتاوى (١١/ ١٦٥).
(٣) كل هذه الآثار عند ابن أبي حاتم.
(٤) روي عن طلحة بن عبيد الله كما في المجمع (١٠/ ٩٤) وقال: رواه البزار وفيه عبد الرحمن بن حماد الطلحي وهو ضعيف بسبب هذا الراوي وغيره، وبسبب الإرسال.
(٥) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٢٥ ـ ١٢٦). (٦) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٥٠٦).
(٧) جامع الرسائل (٢/ ١٣١).

فمن كان أعبد علماً وحالاً كانت عبوديته أكمل؛ فكانت الإضافة في حقه أكمل، مع أنها حقيقة في جميع المواضع) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (فإن المعراج كان بمكة قبل الهجرة بإجماع الناس، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [وكان الإسراء من المسجد الحرام] قال: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ إلى قوله: ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾ إلى قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النجم] وهذا كله نزل بمكة بإجماع الناس) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (وكذلك صعوده ليلة المعراج إلى ما فوق السماوات، وهذا مما تواترت به الأحاديث، وأخبر به القرآن، أخبر بمسراه ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وهو بيت المقدس، وفي موضع آخر بصعوده إلى السماوات، فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾.

فأخبر ـ هنا ـ بمسراه ليلاً بين المسجدين، وأخبر أنه فعل ذلك، ليريه من آياته.

ومعلوم أن الأرض قد رأى سائر الناس ما فيها من الآيات، فعلم أن ذلك ليريه آيات لم يرها عموم الناس، كما قال في السورة الأخرى: ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [النجم]، وفي الصحيحين عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿...وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ...﴾ [الإسراء]، قال: هي رؤيا عين، أريها النبي ﷺ ليلة أسري به[٣].

فكان في إخباره بالمسرى ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ بيان أنه رأى من آياته ما لم يره الناس، وقد بيَّن ذلك في السورة الأخرى، فإنه رأى جبريل عند سدرة المنتهى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾.

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ١٠٥).
(٢) منهاج السنة (٥/ ٦٦ ـ ٦٧).
(٣) سيمرّ تخريجه.

وأنه رأى بالبصر آيات ربه الكبرى ـ وذكر في تلك السورة المسرى، لأنه أمكنه أن يقيم عليه برهاناً ـ فإنه لما أخبرهم به، فكذبه من كذبه، وتعجبوا من ذلك، سألوه عن نعته وصفته فنعته لهم، لم يخرم من النعت شيئاً، وأخبر خبر عيرهم التي كانت في الطريق فظهر لهم صدقه، وكان صدقه في هذا آية على صدقه فيما غاب عنهم، وكان قطع المسافة البعيدة في الزمان اليسير لأجل ما أراه من الآيات التي تختص برؤيتها الأنبياء.

وبهذا تميز عمن يقطع المسافة كرامة لولي، أو بتسخير الجن، كما في قصة بلقيس حيث: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ﴾ [النمل] فإن قطع الجسم للمسافة البعيدة إنما كان لما أوتيه سليمان من الملك، كما كانت الريح: ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [ص]، وهذا تسخير ملكي.

وقطع محمد ﷺ كان لما أراه الله من الآيات، التي ميّزه بها على سائر النبيين، وكان ذلك فتنة، أي محنة وابتلاء للناس ليتبين من يؤمن به ممن يكذبه، وأحاديث المعراج، وصعوده إلى ما فوق السماوات، وفرض الرب عليه الصلوات الخمس حينئذ، ورؤيته لما رآه من الآيات، والجنة والنار، والملائكة والأنبياء في السماوات، والبيت المعمور وسدرة المنتهى وغير ذلك، معروف متواتر في الأحاديث، وهذا النوع لم يكن لغيره من الأنبياء مثله، يظهر به تحقيق قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

فالدرجات التي رُفِعَها محمد ليلة المعراج، وسيُرفعها في الآخرة، في المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون، الذي ليس لغيره مثله.

ففي الصحيحين من حديث أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة، وأبي ذر، ومن رواية ابن عباس وأبي حبة الأنصاري وغيرهم.

فروى أنس: أن رسول الله، قال: «أُتيت بالبراق، وهو دابة أبيض طويل، فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى بصره» قال: «فركبته حتى أتيت بيت المقدس»، قال: «فربطته بالحلقة التي تربط بها الأنبياء» قال: «ثم دخلت المسجد

فصليت فيه ركعتين ثم خرجت، فجاءني جبريل بإناء من خمر، وإناء من لبن، فاخترت اللبن»، فقال: جبريل عليه السلام: «اخترت الفطرة» ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل، فقيل من أنت؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه قال: ففتح لنا، فإذا أنا بآدم، فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل عليه السلام فقيل: من أنت؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال محمد ﷺ قيل: وبعث إليه؟ قال: قد بعث إليه قال: ففتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة، عيسى ويحيى بن زكريا عليهما السلام فرحبا بي ودعوا لي بخير.

ثم عرج بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل: فقيل: من أنت؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ قيل وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف عليه السلام وإذا هو قد أعطي شطر الحسن قال: فرحب بي، ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه ففتح لنا، فإذا أنا بإدريس عليه السلام فرحب ودعا لي بخير: قال الله عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم].

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل عليه السلام فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بهارون عليه السلام فرحب ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل عليه السلام، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل أو قد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بموسى عليه السلام، فرحب ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل عليه السلام، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل ومن معك؟ قال: محمد ﷺ قيل وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام مسند ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، فإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى الله إليَّ ما أوحى، ففرض علي خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى عليه السلام فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة قال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم، قال: فرجعت إلى ربي فقلت: رب خفف عن

أمتي، فحط عني خمساً فرجعت إلى موسى عليه السلام فقلت: حط عني خمساً قال: فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. قال: فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال لي: يا محمد، إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة، ومن هم بحسنة، فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشراً، ومن هم بسيئة فلم يعملها، لم تكتب شيئاً، فإن عملها كتبت له سيئة واحدة، قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى عليه السلام فأخبرته قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فقال رسول الله: «فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه».

وفي رواية، قال: «فأتيت فانطلق بي إلى زمزم فشرح عن صدري، ثم غسل بماء زمزم، ثم أنزلتْ طست من ذهب، مملوؤة في الأصل حكماً وإيماناً، فحَشى بها صدري».

وفي رواية: «فشق من النحر إلى مراق البطن».

وقال عن البيت المعمور: «فقلت: ما هذا؟ قال: بناء بناه الله لملائكته، يدخل فيه كل يوم سبعون ألف ملك، يقدسون الله، ويسبحونه، لا يعودون إليه» وفي حديث أبي ذر: «فنزل جبريل ففرج صدري، ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً، فأفرغها في صدري ثم أطبقه ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا فلما جئنا السماء الدنيا قال جبريل لخازن سماء الدنيا: افتح، قال: من هذا؟ قال: جبريل قال: هل معك أحد؟ قال: نعم، معي محمد ﷺ فلما علونا السماء، فإذا رجل عن يمينه أسودة، وعن يساره أسودة، قال: فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى، قال: مرحباً بالابن الصالح، والنبي الصالح قال: قلت: يا جبريل من هذا؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه فأهل اليمين، أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار».

قال الزهري: «وأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأبا حبة الأنصاري يقولان: قال رسول الله ﷺ: ثم عرج بي، حتى ظهرت بمستوى أسمع منه صريف الأقلام»[1].

وفي صحيح مسلم، عن عبد الله بن مسعود قال: «لما أسري برسول الله ﷺ انتهيَ

(١) مسلم (١٦٣) والصريف: تصويت الأقلام حال الكتابة.

به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السابعة، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض، فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها، فيقبض منها، قال: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [النجم].

قال: فراش من ذهب، قال: فأعطي رسول الله ﷺ ثلاثاً: أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله شيئاً من أمته المقحمات» وعنه في قوله ﷻ: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾ [النجم] قال: إن النبي ﷺ رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح[(١)].

وفي الصحيحين عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ قال: «لمّا كذبتني قريش، قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه»[(٢)].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كربة ما كربت مثلها قط قال: فرفعه الله لي أنظر إليه، ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به»[(٣)]) ا.هـ[(٤)].

وقال رحمه الله: (ولفظ العبد في القرآن: يتناول من عبد الله، فأما عبد لا يعبده فلا يطلق عليه لفظ عبده. كما قال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢] وأما قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] فالاستثناء فيه منقطع، كما قاله أكثر المفسرين والعلماء، وقوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ [ص: ١٧] و﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠] ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ [ص: ٤١] و﴿وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص: ٤٥] ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣] ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣] ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم] ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩] ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١] ونحو هذا كثير) ا.هـ[(٥)].

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾﴾.

---

(١) البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤).
(٢) البخاري (٣٨٨٦)، ومسلم (١٧٠).
(٣) مسلم (١٧٢).
(٤) الجواب الصحيح (٦/ ١٦٥ ـ ١٧٧).
(٥) مجموع الفتاوى (١/ ٤٣ ـ ٤٤).

(وقال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢﴾ فأمر أن يُتخذ وكيلاً، ونهى أن يُتخذ من دونه وكيلاً، لأن المخلوق لا يستقل بجميع حاجات العبد، والوكالة الجائزة أن يوكل الإنسان في فعل يقدر عليه، فيحصل للموكل بذلك بعض مطلوبه، فأما مطالبهُ كلها فلا يقدر عليها إلا الله، وذلك الذي يوكله لا يفعل شيئاً إلا بمشيئة الله ﷻ وقدرته، فليس له أن يتوكل عليه وإن وكله، بل يعتمد على الله في تيسير ما وكله فيه، فلو كان الذي يحصل للمتوكل على الله يحصل وإن توكل على غيره، أو يحصل بلا توكل، لكان اتخاذ بعض المخلوقين وكيلاً أنفع من اتخاذ الخالق وكيلاً، وهذا من أقبح لوازم هذا القول الفاسد) ا.هـ[1].

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤﴾.

(قيل: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي أعلمنا) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (قال الله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ - إلى قوله تعالى - ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ فقد بين الله أنهم إذا غلوا وأفسدوا عاقبهم الله بذنوبهم وسلط عليهم العدو الذي جاس خلال الديار ودخل المسجد وقتل فيهم من لا يحصي عدده إلا الله، ولم يخفرهم أحد من قبور الأنبياء التي كانت هناك) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (مثل خراب بيت المقدس مرتين، ومجيء بخت نصر إلى بيت المقدس، والله سبحانه قد ذكر في القرآن المرتين، فقال: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧﴾، وكانت الأولى بعد سليمان، وكانت الثانية بعد زكريا ويحيى والمسيح، لما قتلوا يحيى بن زكريا، الذي يسميه أهل الكتاب يوحنا المعمداني.

وكثير من المذكورين بالعلم يظن أن (بخت نصر) هو الذي قدم الشام لما قتل

---

(١) جامع الرسائل (١/ ٨٩).
(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٤٣٢).
(٣) الرد على الأخنائي (٥٥).

يحيى بن زكريا، وهذا عند أهل العلم من أهل الكتاب وعند من له خبرة من علماء المسلمين باطل. والمتواتر: أن (بخت نصر) هو الذي قدم في المرة الأولى) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾)، فكان ظهور بني إسرائيل على عدوهم تارة، وظهور عدوهم تارة، من دلائل نبوة موسى ﷺ، وكذلك ظهور أمة محمد ﷺ على عدوهم تارة، وظهور عدوهم عليهم تارة، هو من دلائل رسالة محمد وأعلام نبوته، وكان نصر الله لموسى وقومه على عدوهم، في حياته وبعد موته، كما جرى لهم مع يوشع وغيره، من دلائل نبوة موسى) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ۝٨﴾، وهم معترفون بأن بيت المقدس خرب مرتين.

فالخراب الأول لما جاء (بخت نصر) وسباهم إلى بابل، وبقي خراباً سبعين سنة والخراب الثاني: بعد المسيح بنحو سبعين سنة، وقد قيل: هذا تأويل قوله: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ﴾ [المائدة: ٧٨].

فبعد الخراب الثاني، تفرقوا في الأرض، ولم يبق لهم ملك، وبين الخرابين كانوا تحت قهر الملوك الكفار، وبُعث المسيح عليه الصلاة والسلام وهم كذلك) ا.هـ[٣].

---

(١) الجواب الصحيح (٦/ ٣٣٧ ـ ٣٣٨).
(٢) الجواب الصحيح (٦/ ٤١٦ ـ ٤١٧).
(٣) الجواب الصحيح (٥/ ٩٤ ـ ٩٥).

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾.

(وقال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ قال بعض السلف[١]: إن للحسنة لنوراً في القلب وقوة في البدن وضياءاً في الوجه وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة لظلمة في القلب وسواداً في الوجه ووهناً في البدن، ونقصاً في الرزق. وبغضاً في قلوب الخلق) ا.هـ[٢].

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾.

(وما أحسن ما وصف الله به كتابه بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ فأقوم الطرق إلى أشرف المطالب ما بعث الله به رسوله) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (وجعله هادياً ومبشراً في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾) ا.هـ[٤].

﴿وَجَعَلْنَا الَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ الَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾.

(وقد قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا الَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ الَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ فالقمر آية الليل. وكذلك النجوم إنما تطلع فترى بالليل) ا.هـ[٥].

﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾.

(بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وهو حجة عليهم[٦] أيضاً في نفي العذاب مطلقاً إلا بعد إرسال الرسل، وهم يجوزون التعذيب قبل إرسال الرسل، فأولئك يقولون: يعذب من لم يبعث إليه رسولاً، لأنه فعل القبائح العقلية، وهؤلاء يقولون: بل يعذب من لم يفعل قبيحاً قط كالأطفال، وهذا مخالف للكتاب والسنة والعقل أيضاً، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، وقال تعالى عن أهل النار: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ

---

(١) مرّ تخريجه.
(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٩٨ ـ ٩٩).
(٣) الرد على المنطقيين (١٦٢).
(٤) مجموع الفتاوى (٣/ ٦٠).
(٥) مجموع الفتاوى (١٧/ ٥٠٦).
(٦) أي المعتزلة.

فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ [الملك] فقد أخبر ﷻ بصيغة العموم أنه كلما القي فيها فوج سألهم الخزنة: هل جاءهم نذير؟ فيعترفون بأنهم قد جاءهم نذير، فلم يبق فوج يدخل النار إلا وقد جاءهم نذير، فمن لم يأته نذير لم يدخل النار) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ فلم يكن هؤلاء مستوجبين العذاب، وليس في هذا ما ينفر عن القبول منهم؛ ولهذا لم يذكره أحد من المشركين قادحاً) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (ثم هؤلاء يحتجون على المعتزلة في نفس الإيجاب والتحريم العقلي بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وهو حجة عليهم أيضاً في نفي العذاب مطلقاً إلا بعد إرسال الرسل، وهم يجوزون التعذيب قبل إرسال الرسل، فأولئك يقولون: يعذب من لم يبعث إليه رسولاً لأنه فعل القبائح العقلية، وهؤلاء يقولون: بل يعذب من لم يفعل قبيحاً قط كالأطفال.

وهذا مخالف للكتاب والسنة والعقل أيضاً. قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وقال تعالى عن النار: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾.

فقد أخبر ﷻ بصيغة العموم أنه كلّما ألقيَ فيها فوج سألهم الخزنة: هل جاءهم نذير؟ فيعترفون بأنهم قد جاءهم نذير فلم يبق فوج يدخل النار إلا وقد جاءهم نذير، فمن لم يأته نذير لم يدخل النار) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (وأبو هريرة نفسه، الذي روى هذا الحديث عن النبي ﷺ، قد ثبت عنه ما رواه غير واحد، منهم عبد الرحمن بن أبي حاتم في تفسيره وغيره، من حديث عبد الرزاق: أنبأ معمّر، عن ابن طاووس، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: إذا كان يوم القيامة جمع الله أهل الفترة والمعتوه والأصم والأبكم والشيوخ الذين لم يدركوا الإسلام، ثم أرسل إليهم رسولاً: أن ادخلوا النار، فيقولون: كيف ولم يأتنا رسل؟ قال: وايم الله لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً، ثم يرسل إليهم [رسولاً]،

---

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ٢١٥).
(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ٣٠).
(٣) منهاج السنة (٥/ ٩٩ ـ ١٠٠).

فيطيعه من كان يريد أن يطيعه، ثم قال أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[١]) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (لكن الله لا يعذب أحداً إلا بعد بلوغ الرسالة كما قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ ولم يفرق سبحانه بين نوع ونوع، وذكرنا أن هذه الآية يحتج بها الأشعري وأصحابه ومن وافقهم كالقاضي أبي يعلى وأتباعه وهم يجوزون أن الله يعذب في الآخرة بلا ذنب، حتى قالوا يعذب أطفال الآخرة، فاحتجوا بها على المعتزلة، والآية حجة على الطائفتين كما قد بسط في غير هذا الموضع) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (كالمجنون والشيخ الكبير الأصم الذي أدركه الإسلام وهو أصم لا يسمع ما يقال، ومن مات في الفترة، وأن هؤلاء يؤمرون يوم القيامة فإن أطاعوا دخلوا الجنة وإلا استحقوا العذاب، وكان هذا تصديقاً لعموم قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وبذلك استدل أبو هريرة على أن أطفال الكفار لا يعذبون حتى يمتحنوا في الآخرة) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (والقرآن بيَّن أن السعداء هم الذين اتبعوا الرسل، ولا يكون الكامل إلا سعيداً، وأن الأشقياء هم المخالفون للرسل، فإنما يعذب الله في الآخرة من يخالف الرسل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وقال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩﴾ [الملك] وأمثال هذه النصوص) ا.هـ[٥].

وقال رحمه الله: (﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ ولهذا قال الفقهاء في البغاة إن الإمام يراسلهم فإن ذكروا شبهة بينها، وإن ذكروا مظلمة أزالها، كما أرسل عليٌّ ابنَ عباس إلى الخوارج فناظرهم حتى رجع منهم أربعة آلاف، وكما طلب عمر بن عبد العزيز دعاة القدرية والخوارج، فناظرهم حتى ظهر لهم الحق، وأقروا به؛ ثم بعد موته نقض غيلان القدري التوبة فصلب) ا.هـ[٦].

وقال رحمه الله: (فأما قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ ونحو ذلك فإنما

---

(١) مسند أحمد (٤/ ٢٤) والحديث صحيح.
(٢) درء تعارض العقل (٨/ ٣٩٩ ـ ٤٠٠).
(٣) النبوات (١٦٣).
(٤) الصفدية (٢/ ٢٤٥).
(٥) الصفدية (٢/ ٣٠٤).
(٦) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٤٠).

يتناول من يعقل من الأطفال والمجانين فأما الصبي المميز فتكليفه يمكن في الجملة؛ ولهذا يصحح أكثر الفقهاء تصرفاته تارة مستقلاً، كإيمانه، وتارة بالإذن، كمعارضته الكبيرة) ا.هـ[1].

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾.

(إن الله سبحانه في القرآن رتب الثواب والعقاب على مجرد الإرادة كقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾ وقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ [هود] وقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى].

فرتب الثواب والعقاب على كونه يريد العاجلة، ويريد الحياة الدنيا، ويريد حرث الدنيا وقال في آية هود: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ [هود: ١٥] ـ إلى أن قال ـ ﴿...وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦] فدل على أنه كان لهم أعمال بطلت، وعوقبوا على أعمال أخرى عملوها، وأن الإرادة هنا مستلزمة للعمل، ولما ذكر إرادة الآخرة، قال: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وذلك لأن إرادة الآخرة وإن استلزمت عملها فالثواب إنما هو على العمل المأمور به، لا كل سعي، ولا بد مع ذلك من الإيمان) ا.هـ[2].

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾.

(وقال تبارك وتعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾،

---

(١) المستدرك على مجموع الفتاوى مخطوط (تحت الطبع).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٧٤٤ ـ ٧٤٥).

فبين الله ﷻ أنه يمد من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة من عطائه، وأن عطاءه ما كان محظوراً من بر ولا فاجر، ثم قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ فبين الله سبحانه أن أهل الآخرة يتفاضلون فيها أكثر مما يتفاضل الناس في الدنيا وأن درجاتها أكبر من درجات الدنيا، وقد بين تفاضل أنبيائه عليهم السلام كتفاضل سائر عباده المؤمنين، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥]) ا.هـ[1].

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾.

(والله تعالى قال: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ﴾ وهو سبحانه يعطي السلطان والمال للبر والفاجر، فقد يعطي أحد هؤلاء تصرفاً: إما بقهر عدوه وإما بنصر وليه، كما تعطى الملوك، وقد يعطى نوعاً من المكاشفة إما بإخبار بعض الجن له، وقد يعرف أنه من الجن، وقد لا يعرف، وإما بغير ذلك) ا.هـ[2].

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾.

(وكان من القرآن الذي نسخ لفظه: «لا ترغبوا عن آبائكم فإن كفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم»[3].

فإن حق الوالدين مقرون بحق الله في مثل قوله: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ۚ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤] وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ فالوالد أصله الذي منه خلق، والولد من كسبه كما قال: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾﴾ [المسد] فالجحد لهما شعبة من شعب الكفر، فإنه جحد لما منه خلقه ربه، فقد جحد الرب إياه، وقد كان في لغة من قبلنا يسمى الرب أباً، فكان فيه كفر بالله من هذا الوجه، ولكن ليس هذا كمن جحد الخالق بالكلية، وسنتكلم إن شاء الله على سائر الأحاديث) ا.هـ[4].

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ١٨٨ ـ ١٨٩).
(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ٣٠).
(٣) البخاري (٦٨٦٨)، ومسلم (٦٣).
(٤) مجموع الفتاوى (٧/ ٣٥٦).

وقال رحمه الله: (فعباد الأصنام لم يعبدوا غيره عندهم[١]، لأنه ما عندهم له غير؛ ولهذا جعلوا قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ بمعنى قدر ربك أن لا تعبدوا إلا إياه؛ إذ ليس عندهم غير له تتصور عبادته، فكل عابد صنم إنما عبد الله) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (كان بعض السلف يقرؤون: ﴿ووصىٰ ربك أن لا تعبدوا إلّا إياه﴾ ذكره ثعلب عن ابن عباس، وذكروا أنها كذلك في بعض المصاحف، ولهذا قال في سياق الكلام: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ الآية، وساق أمره ووصاياه، إلى أن قال: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ [الإسراء]، فختم الكلام بمثل ما فتح به، من أمره بالتوحيد، ونهيه عن الشرك، ليس هو إخبار أنه ما عبد أحد إلا الله، وأن الله قدر ذلك وكونه، وكيف وقد قال: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾؟ وعندهم ليس في الوجود شيء يجعل إلهاً آخر، فأي شيء عبد فهو نفس الإله ليس آخر غيره) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (وأما القضاء فقال في الكوني: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢] وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧] وقال في الديني: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي أمر، وليس المراد به قدر ذلك، فإنه قد عبد غيره كما أخبر في غير موضع) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (ومن لم يلحظ المعاني من خطاب الله ورسوله لا يفهم تنبيه الخطاب وفحواه من أهل الظاهر؛ كالذين يقولون: إن قوله: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ لا يفيد النهي عن الضرب وهو إحدى الروايتين عن داود؛ واختاره ابن حزم، وهذا في غاية الضعف، بل وكذلك قياس الأولى وإن لم يدل عليه الخطاب، لكن عرف أنه أولى بالحكم من المنطوق بهذا، فإنكاره من بدع الظاهرية التي لم يسبقهم بها أحد من السلف، فما زال السلف يحتجون بمثل هذا وهذا) ا.هـ[٥].

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾.

(قال: وعن قوله: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ والذل لا جناح له؟.

فيقال له: لا ريب أن الذل ليس له جناح مثل جناح الطائر، كما أنه ليس للطائر

---

(١) هذا في معرض رده على أهل وحدة الوجود.
(٢) مجموع الفتاوى (٢/ ١٢٤).
(٣) مجموع الفتاوى (٢/ ٢٦٤).
(٤) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٦٨).
(٥) مجموع الفتاوى (٢١/ ٢٠٧).

جناح مثل أجنحة الملائكة، ولا جناح الذل مثل جناح السفر، لكن جناح الإنسان جانبه، كما أن جناح الطير جانبه، والولد مأمور بأن يخفض جانبه لأبويه؛ ويكون ذلك على وجه الذل لهما لا على وجه الخفض الذي لا ذل معه، وقد قال للنبي ﷺ: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء] ولم يقل: جناح الذل، فالرسول أمر بخفض جناحه وهو جانبه، والولد أمر بخفض جناحه ذلاً، فلا بد مع خفض جناحه أن يذل لأبويه، بخلاف الرسول[1] فإنه لم يؤمر بالذل، فاقتران ألفاظ القرآن تدل على اقتران معانيه وإعطاء كل معنى حقه.

ثم إنه سبحانه كمل ذلك بقوله: ﴿مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ فهو جناح ذل من الرحمة لا جناح ذل من العجز والضعف؛ إذ الأول محمود والثاني مذموم) ا.هـ[2].

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

(وقد نهى الله في كتابه عن تبذير المال: ﴿وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا﴾ وهو إنفاقه في غير مصلحة وكان مضيعاً لماله، وقد نهى النبي ﷺ عن إضاعة المال في الحديث المتفق عليه عن المغيرة بن شعبة عن النبي ﷺ: «أنه كان ينهى عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»[3]) ا.هـ.

وقال رحمه الله: (وأيضاً: فالإنسان ليس له أن يصرف المال إلا فيما ينفعه في دينه أو دنياه، وما سوى ذلك سفه وتبذير، نهى الله عنه بقوله: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴿٢٩﴾﴾.

قال بعض السلف: لو أنفقت درهماً في معصية الله كنت مبذراً، ولو أنفقت ملء الأرض في طاعة الله لم تكن مبذراً[4].

والتبذير: قد يكون في القدر بأن يعطي هؤلاء المستحقين فوق ما يصلح، بحيث يصرف الزائد على كفايتهم إليهم، ويعدل به عمن هو أحوج إليه وأحق به منهم، وقد يكون في الأصل بأن يعطي المال في المنافع المحرمة، كمهر البغي، وحلوان الكاهن،

---

(١) أي في قوله: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾. (٢) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٤٦٥ ـ ٤٦٦).
(٣) البخاري (١٤٧٧)، ومسلم (١٧١٥).
(٤) مجاهد كما في ابن جرير (١٥/ ٧٤) وكذا «زاد المسير» (٥/ ٢٨).

فهذا من الذنوب، وذاك من الإسراف، ولهذا قال المؤمنون: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا﴾ [آل عمران: ١٤٧]) ا.هـ[١].

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾.

(وقد قال الله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ فأمر تعالى إذا لم يجد ما يعطي السائل أن يقول له قولاً ميسوراً) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (وأما من فيهم جهل ونفاق فكانوا يسألونه ﷺ ويلحون عليه ويؤذونه بالسؤال، وهو يصبر على أذاهم ويعطيهم ـ له تعالى ـ إحساناً إليهم وتألفاً لقلوبهم واستجلاباً لهم ليدخلوا في الإسلام، أو يردهم بميسور من القول، كما في حديث هند بن أبي هالة أنه كان إذا أتاه طالب حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول[٣] وذلك لأن الله أمره بذلك فقال: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ وقد عرف ما ورد في سبب نزول الآية من إعطائه السائل ما سأل حتى لحقه الضرر، وكل ذلك كان وهو حي) ا.هـ[٤].

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

(ولفظ «الخطأ» يستعمل في العمد وفي غير العمد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ والأكثرون يقرؤون (خطأ) على وزن رداً وعلماً، وقرأ ابن عامر (خَطَأً) على وزن عملاً، كلفظ الخطأ في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ [النساء: ٩٢] وقرأ ابن كثير (خطاء) على وزن هجاء وقرأ ابن رزين (خطاء: على وزن شراباً. وقرأ الحسن وقتادة (خطأ) على

---

(١) نظرية العقد (١٨ ـ ١٩). (٢) الاستغاثة (٢٠٢).

(٣) هو الحديث المشهور المعروف في وصف النبي ﷺ الذي ذكره الترمذي في كتابه «الشمائل المحمدية» (٨، ٢٢٥، ٣٣٦).

(٤) الاستغاثة (١٠٧ ـ ١٠٨).

وزن قتلاً. وقرأ الزهري (خطا) بلا همز على وزن عدى، قال الأخفش: خطئ يخطأ بمعنى: أذنب، وليس معنى أخطأ؛ لأن أخطأ في ما لم يصنعه عمداً، تقول فيما أتيته عمداً خطيت؛ وفيما لم تتعمده: أخطأت.

وكذلك قال أبو بكر ابن الأنباري: الخطأ: الإثم، يقال: قد خطئ يخطأ إذا أثم، وأخطأ يخطئ إذا فارق الصواب[١]) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ...﴾ فإنه نهاهم عن ذلك، لأنه هو الذي كانوا يفعلونه، وقد حرم في موضع آخر قتل النفس بغير حق، سواء كان ولداً أو غيره، ولم يكن ذلك مناقضاً لتخصيص الولد بالذكر) ا.هـ[٣].

﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾.

(وأهل جمال الصورة يبتلون بالفاحشة كثيراً، واسمها ضد الجمال، فإن الله سماه فاحشة وسوءاً وفساداً وخبيثاً، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (كقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ فعلل التحريم بأنها فاحشة بدون النهي، وإن ذلك علة للنهي عنها) ا.هـ[٥].

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ علل النهي عنه بما اشتمل عليه من أنه فاحشة، وأنه ساء سبيلاً، فلو كان إنما صار فاحشة وساء سبيلاً بالنهي لما صح ذلك؛ لأن العلة تسبق المعلول لا تتبعه، ومثل ذلك كثير في القرآن) ا.هـ[٦].

﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾.

(قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ قيل في التفسير: لا يقتل غير قاتله) ا.هـ[٧].

---

(١) زاد المسير (٥/ ٣٠ ـ ٣١).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٢٠).
(٣) الجواب الصحيح (١/ ٣٨٠ ـ ٣٨١).
(٤) الاستقامة (١/ ٣٥٧).
(٥) مجموع الفتاوى (١٧/ ١٨١).
(٦) مجموع الفتاوى (١٥/ ٨ ـ ٩).
(٧) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٧٤) (٣٥/ ٨٨).

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾﴾.

(ومنها ما قد اتفقوا على تقديم العموم فيه كقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ مع قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾ [النساء: ٦] فإن أكلها حرام سواء قصد بداراً كبر اليتيم أو لا) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ ولم يفرق سبحانه بين عقد وعقد وعهد وعهد، ومن شارط غيره في بيع أو نكاح على صفات اتفقا عليها ثم تعاقد بناء عليها فهي من عقودهم وعهودهم لا يعقلون ولا يفهمون إلا ذلك، والقرآن نزل بلغة العرب وقال ﷻ: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ [الفتح: ١٠] وقال: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١] يعني العهود ومن نكث الشرط المتقدم فهو ناكث كمن نكث المقارن لا تفرق العرب بينهما في ذلك) ا.هـ[٢].

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾﴾.

(وكذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ - أي، لا تقل ما ليس لك به علم - ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾، وهذا نهي عن التكلم بلا علم، وهو عام في جميع أنواع الأخبار، وقد يتناول ما أخبر به الإنسان، وما قد يعتقده بغير الإخبار من الدلائل والآيات والعلامات، ليس له أن يتكلم بلا علم، فلا ينفي شيئاً إلا بعلم، ولا يثبته إلا بعلم) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾﴾ فقد أخبر أنه يسأل العبد عن سمعه وبصره وفؤاده، ونهاه أن يقول ما ليس له به علم) ا.هـ[٥].

وقال رحمه الله: (مع أن الفرق الذي يبين أنواع «الحسيات» تختلف فيه أنواع العلوم أعظم مما تختلف في هذا فإن «البصر» يرى من غير مباشرة «المرئي» و«الذوق»

---

(١) مجموع الفتاوى (٣١/١٠٧).
(٢) الفتاوى (٣/٢١٩).
(٣) الرد على المنطقيين (٢٧٤).
(٤) الجواب الصحيح (٦/٤٥٨).
(٥) الاستقامة (١/٢١٨).

و«الشم» و«اللمس» لا يحصل له الإحساس إلا بمباشرة المحسوس، و«السمع» وإن كان يحس الأصوات فالمقصود الأعظم به معرفة الكلام وما يخبر به المخبرون من العلم.

وهذا سبب تفضيل طائفة من الناس لـ«السمع» على البصر كما ذهب إليه ابن قتيبة وغيره وقال الأكثرون: البصر أفضل من السمع والحقيقة أن إدراك البصر أكمل كما قاله الأكثرون، كما قال النبي ﷺ: «ليس المخبر كالمعاين»[1]، لكن السمع يحصل به من العلم لنا أكثر مما يحصل بـ«البصر» فالبصر أقوى وأكمل و«السمع» أعم وأشمل.

وهاتان الحاستان هما الأصل في العلم بالمعلومات التي يمتاز بها الإنسان عن البهائم.

ولهذا يقرن الله بينهما وبين «الفؤاد» في مواضع، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل]، وقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ﴾ [البقرة: ٧] وقال تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة] في حق المنافقين وقال في حق الكافرين: ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء] ونظائر هذا متعددة) ا.هـ[2].

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾.

(قال في سورة سبحان ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ وقد نهى عن

---

(١) رواه أحمد (١/ ٢٧١)، والحاكم (٢/ ٣٢١)، وابن حبان (٦٢١٣ ـ الإحسان)، وابن عدي في الكامل (٧/ ٢٥٩٦) والحديث صحيح، والله أعلم.

(٢) الرد على المنطقيين (٩٥ ـ ٩٧).

الشرك وعقوق الوالدين؛ وأمر بإيتاء ذي القربى الحقوق ونهى عن التبذير، وعن التقتير، وأن يجعل يده مغلولة إلى عنقه وأن يبسطها كل البسط، ونهى عن قتل النفس بغير الحق، وعن الزنى وعن قربان مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن إلى أن قال: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ وهو سبحانه لا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر) ا.هـ[1].

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾.

(إن الله قال في كتابه: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ وقال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ [الشعراء] وقال: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، فنهاه أن يجعل أو يدعو معه إلهاً آخر، ولم ينهه أن يثبت معه مخلوقاً، أو يقول: إن معه عبداً مملوكاً أو مربوباً فقيراً، أو معه شيئاً موجوداً خلقه، كما قال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [الصافات: ٣٥] ولم يقل لا موجود إلا هو، أو لا هو إلا هو، أو لا شيء معه إلا هو، بمعنى أنه نفس الموجودات وعينها.

وهذا كما قال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣] فأثبت وحدانيته في الألوهية، ولم يقل إن الموجودات واحد، فهذا التوحيد الذي في كتاب الله هو توحيد الألوهية، وهو أن لا تجعل معه ولا تدعو معه إلهاً غيره، فأين هذا من أن يجعل نفس الوجود هو إياه؟.

وأيضاً: فنهيه أن يجعل معه أو يدعو معه إلهاً آخر دليل على أن ذلك ممكن، كما فعله المشركون الذين دعوا مع الله آلهة أخرى، فلو كانت تلك الآلهة هي إياه ـ ولا شيء معه أصلاً ـ امتنع أن يدعى معه آلهة أخرى.

فهذه النصوص: تدل على أن معه أشياء ليست بآلهة، ولا يجوز أن تجعل آلهة، ولا تدعى آلهة، وأيضاً فعند الملحدين يجوز أن يعبد كل شيء، ويدعى كل شيء، إذ لا يتصور أن يعبد غيره فإنه هو الأشياء.

فيجوز للإنسان حينئذ: أن يدعو كل شيء من الآلهة المعبودة من دون الله، وهو عند الملاحدة ما دعا معه إلهاً آخر، فجعل نفس ما حرمه الله وجعله شركاً، جعله

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣).

توحيداً، والشرك عنده لا يتصور بحال) ا.هـ[١].

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾.

(﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ وهو في أصح القولين (سبيلاً) بالتقرب بعبادته وذكره، ولهذا قال بعدها: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ فأخبر عن الخلائق كلها أنها تسبح بحمده وقد بسط هذا في موضع آخر) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ فهم كانوا يقولون: [إنهم] وسائل ووسائط وشفعاء، لم يكونوا يقولون: إنهم يخلقون كخلقه فقال تعالى: ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء].

فتبين أن ما يدعى من دونه من الملائكة والأنبياء وغيرهم، يبتغى [به] الوسيلة إلى الله والتقرب إليه، وذلك لأنه هو الإله المعبود الحق، الذي كل ما سواه مفتقر إليه من جهة أنه ربه، ليس له شيء إلا منه، ومن جهة أنه إلهه لا منتهى لإرادته دونه، فلو لم يكن هو المعبود لفسد العالم، إذ [لو] كانت الإرادات ليس لها مراد لذاته، والمراد إما لنفسه وإما لغيره، والمراد لغيره لا بد أن يكون ذلك الغير مراداً حتى ينتهي الأمر إلى مراد لنفسه) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (قال[٤]: وأما قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ فهي كالآية الأولى، أعني أنه برهان على امتناع إلهين فعلهما واحد ومعنى هذه الآية، أنه لو كان فيهما آلهة إلا الله قادرة على إيجاد العالم وخلقه، غير الإله الموجود، حتى تكون نسبته من هذا العالم نسبة الخالق له، لوجب أن يكون على العرش معه، فكان يوجد موجودان متماثلان ينتسبان إلى محل واحد نسبة

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٢٧٧ ـ ٢٧٨).
(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٧٧ ـ ٥٧٨).
(٣) منهاج السنة (٣/ ٣٣١ ـ ٣٣٢).
(٤) القائل هو الفيلسوف ابن رشد.

واحدة، فإن المثلين لا ينتسبان إلى محل واحدة نسبة واحدة؛ لأنه إذا اتحدت نسبته اتحد المنسوب، أعني لا يجتمعان في النسبة إلى محل واحد، كما لا يحلان في محل واحد، إذا كانا مما شأنهما أن يكونا بالمحل، وإن كان الأمر في نسبة الإله إلى العرش ضد هذه النسبة، أعني أن العرش يقوم به، لا أنه يقوم بالعرش. ولذلك قال: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

قلت: قد سلك في هذه الآية هذا المسلك الذي ذكره، والآية فيها قولان معروفان للمفسرين:

أحدهما: أن قوله: ﴿لَٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ أي بالتقرب إليه والعبادة والسؤال له.

والثاني: بالممانعة والمغالبة والأول هو الصحيح، فإنه قال: ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ وهم لم يكونوا يقولون: إن آلهتهم تمانعه وتغالبه بخلاف قوله: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾ [المؤمنون: ٩١] فهذا في الآلهة المنفية، ليس فيه أنها تعلوا على الله، وأن المشركين يقولون ذلك.

وأيضاً فقوله: ﴿لَٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ يدل على ذلك، فإنه قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾ [المزمل] والمراد به اتخاذ السبيل إلى عبادته وطاعته، بخلاف العكس، فإنه قال: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ﴾ [النساء: ٣٤] ولم يقل: إليهن سبيلاً.

وأيضاً فاتخاذ السبيل إليه مأمور به، كقوله: ﴿وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥] وقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ﴾ [الإسراء].

فبين أن الذين يُدعَونَ من دون الله يطلبون إليه الوسيلة، فهذا مناسب لقوله: ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾.

وليس المقصود هنا بسط الكلام على ذلك، إذ المقصود بيان ما ذكره في طرق المعتزلة ومن سلك سبيلهم من الأشعرية)[1].

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ وهم كانوا يقولون: إنهم يشفعون لهم، ويتقربون بهم.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٩/ ٣٤٩ ـ ٣٥١).

لكن كانوا يثبتون الشفاعة بدون إذنه، فيجعلون المخلوق يملك الشفاعة، وهذا نوع من الشرك، فلهذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ [الزخرف: ٨٦] فالشفاعة لا يملكها أحد غير الله.

كما روى ابن أبي حاتم عن السدي[١] في قوله: ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ يقول: لابتغت الحوائج من الله، وعن معمر عن قتادة، ﴿لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ لابتغوا التقرب إليه مع أنه ليس كما يقولون، وعن سعيد عن قتادة[٢]: ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ يقول: لو كان معه آلهة إذاً لعرفوا له فضله ومزيته عليهم، ولابتغوا إليه ما يقربهم إليه، وروي عن سفيان الثوري لتعاطوا سلطانه[٣].

وعن أبي بكر الهذلي عن سعيد بن جبير[٤]: سبيلاً إلى أن يزيلوا ملكه، والهذلي ضعيف) ا.هـ[٥].

وقال رحمه الله: (قال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ أي وإن كانوا - كما يقولون - يشفعون عنده بغير إذنه، ويقربونكم إليه بغير إذنه، فهو الرب والإله دونهم، وكانوا يبتغون إليه سبيلاً بالعبادة له والتقرب إليه، هذا أصح القولين. كما قال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان]، وقال: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾ [عبس] وقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

ثم قال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ فتعالى عن أن يكون معه إله غيره، أو أحد يشفع عنده إلا بإذنه، أو يتقرب إليه أحد إلا بإذنه. فهذا هو الذي كانوا يقولون.

ولم يكونوا يقولون أن آلهتهم تقدر أن تمانعه أو تغالبه، بل هذا يلزم من فرض إله آخر يخلق كما يخلق، وإن كانوا هم لم يقولوا ذلك، كما قال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]) ا.هـ[٦].

قال ابن القيم:

(قال شيخنا رضي الله عنه: والصحيح أن المعنى: لابتغوا إليه سبيلاً بالتقرب إليه وطاعته،

---

(١) لم أجده في «تفسير السدي الكبير» وتفسير من أبي حاتم لهذه السورة ليس عندي.
(٢) ابن جرير (١٥/ ٩١).
(٣) لم أجده في تفسيره المطبوع.
(٤) زاد المسير (٥/ ٣٨).
(٥) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٢٢).
(٦) مجموع الفتاوى (١١/ ١٢٤).

فكيف تعبدونهم من دونه؟ وهم لو كانوا آلهة كما يقولون لكانوا عبيداً له، قال: ويدل على هذا وجوه:

منها: قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، أي هؤلاء الذين تعبدونهم من دوني هم عبادي كما أنتم عبادي، ترجون رحمتي وتخافون عذابي، فلماذا تعبدونهم من دوني؟

الثاني: أنه سبحانه لم يقل لابتغوا عليه سبيلاً، بل قال: ﴿لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ وهذا اللفظ إنما يستعمل في التقرب، كقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥] وأما في المغالبة فإنما يستعمل بعلى، كقوله: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٣٤].

والثالث: أنهم لم يقولوا إن آلهتهم تغالبه وتطلب العلو عليه، وهو سبحانه قد قال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ وهم إنما كانوا يقولون: إن آلهتهم تبتغي التقرب إليه وتقربهم زلفى إليه، فقالوا: لو كان الأمر كما تقولون لكانت تلك الآلهة عبيداً له، فلماذا تعبدون عبيده من دونه؟) ا.هـ[1].

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾.

(وأما التسبيح فقال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ وقال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الصف: ١، الحشر: ١] في موضعين، و﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١] و﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١] في موضعين، فخمس سور افتتحت بذكر تسبيح ما في السماوات وما في الأرض له؛ وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١]) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: ﷻ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ يعني: وما من شيء إلا يسبح، قال ابن عباس[3]: حتى النبات الذي خلقه يسبح بحمده، وقال عكرمة: لا يسبن

---

(١) الجواب الكافي (٢٠٣ ـ ٢٠٤).
(٢) جامع الرسائل (١/ ٤).
(٣) أبو الشيخ في «العظمة» وابن مردويه في تفسيره كما في الدر (٤/ ١٨٣).

أحدكم ثوبه ولا دابته[١]، فما من شيء إلا يسبح بحمده، وروي: أن صرير الباب بالتسبيح[٢]، وقال سبحانه: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠] وقد رُوِيَ: سبّحي[٣]) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (قال بعضهم في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ قال: تسبيحه دلالته على صانعه فتوجب بذلك تسبيحاً من غيره، والصواب أن لها تسبيحاً وسجوداً بحسبها) ا.هـ[٥].

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾.

قال رحمه الله: (ويبين ذلك أن الله يقول عن الكفار: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ فقد أخبر ـ ذماً للمشركين ـ أنه إذا قرئ عليهم القرآن حُجِبَ بين أبصارهم وبين الرسول بحجاب مستور، وجُعِلَ على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً فلو كان أهل العلم والإيمان على قلوبهم أكنة أن يفقهوا بعضه لشاركوهم في ذلك، وقوله: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ يعود إلى القرآن كله فعلم أن الله يحب أن يفقه؛ ولهذا قال الحسن البصري: ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم في ماذا أنزلت وماذا عنى بها، وما استثنى من ذلك لا متشابهاً ولا غيره.

وقال مجاهد[٦]: عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره مرات أقف عند كل آية وأسأله عنها، فهذا ابن عباس حبر الأمة وهو أحد من كان يقول: لا يعلم تأويله إلا الله، يجيب مجاهداً عن كل آية في القرآن.

وهذا هو الذي حمل مجاهداً ومن وافقه كابن قتيبة على أن جعلوا الوقف عند قوله ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧] فجعلوا الراسخين يعلمون التأويل، لأن مجاهداً تعلم من ابن عباس تفسير القرآن كله وبيان معانيه، فظن أن هذا هو التأويل المنفي عن غير الله) ا.هـ[٧].

---

(١) سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم، الدر (٤/ ١٨٤).
(٢) هذا معروف عن أبي صالح وعزاه صاحب الدر (٤/ ١٨٤) لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والخطيب.
(٣) ابن جرير (٢٢/ ٦٥) عن ابن عباس وغيره.
(٤) درء تعارض العقل (٨/ ٥٠٥).
(٥) مجموع الفتاوى (١/ ٤٧).
(٦) مر تخريجه.
(٧) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤).

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

(ولما كان الذين يعارضون آيات الأنبياء من السحرة والكهان لا يأتون بمثل آياتهم بل يكون بينهما شبه كشبه الشعر بالقرآن، ولهذا قالوا في النبي: إنه ساحر وكاهن وشاعر ومجنون قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ فجعلوا له مثلاً لا يماثله بل بينهما شبه مع وجود الفارق المبين، وهذا هو القياس الفاسد، فلما كان الشعر كلاماً له فواصل ومقاطع، والقرآن آيات له فواصل ومقاطع، قالوا شاعر، ولكن شتان، وكذلك الكاهن يخبر ببعض المغيبات ولكن يكذب كثيراً وهو يخبر بذلك عن الشياطين وعليه من آثارهم ما يدل على أنه أفّاك أثيم كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [الشعراء] ثم قال: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الشعراء] فذكر سبحانه الفرق بين النبي وبين الكاهن والشاعر) ا.هـ[1].

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾.

قال رحمه الله: (ويدل على ذلك قوله: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ﴾ فعلق الرحمة بالمشيئة، كما علق التعذيب، وما تعلق بالمشيئة مما يتصف به الرب فهو من «الصفات الاختيارية») ا.هـ[2].

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾.

قال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾، قالت طائفة من السلف[3]: كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء كالمسيح وعزير وغيرهما، فنهى الله عن ذلك، وأخبر تعالى أن هؤلاء يرجون رحمة الله، ويخافون عذابه، ويتقربون إليه، وأنهم لا يملكون

---

(١) النبوات (٢٠٨ ـ ٢٠٩).
(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٢٦٢).
(٣) ذكر صاحب الدر (٤/ ١٩٠) عن ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس.

كشف الضر عن الداعين، ولا تحويله عنهم) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾، قال طائفة من السلف: كان قوم يدعون العزيز والمسيح والملائكة، فقال الله تعالى: هؤلاء الأنبياء والملائكة الذين تدعونهم يرجون رحمتي ويخافون عذابي كما ترجون رحمتي وتخافون عذابي، ويتقربون إليّ كما تتقربون إليّ، وأخبر أنهم لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويلاً، فإذا كان هذا في الملائكة والنبيين فكيف بمن دونهم كمريم وغيرها من الصالحين الرجال والنساء) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾، قال طائفة من السلف: كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء فقال الله تعالى: هؤلاء الذين تدعونهم هم عبادي كما أنتم عبادي، يرجون رحمتي كما ترجون رحمتي، ويخافون عذابي كما تخافون عذابي، ويتقربون إليّ كما تتقربون إليّ فنهى سبحانه عن دعاء الملائكة والأنبياء، مع إخباره لنا أن الملائكة يدعون لنا ويستغفرون، ومع هذا فليس لنا أن نطلب ذلك منهم) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾، قال طائفة من السلف: كان أقوام يدعون العزير والمسيح والملائكة فأنزل الله هذه الآية يبين فيها أن الملائكة والأنبياء يتقربون إلى الله ويرجون رحمته ويخافون عذابه) ا.هـ[٤].

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٣٠٢).

(٢) المستدرك (٥/ ٢٥٥)، مجموع الفتاوى (٢٧/ ٦٥).

(٣) مجموع الفتاوى (١/ ٣٣٠) الجواب الصحيح (١/ ٣٥٩).

(٤) مجموع الفتاوى (١/ ٢٩٢) (٣/ ١٠٦) (٢٦/ ١٥٢) (٢٧/ ١٢٥، ٣٤٠) (٢٤/ ٣٤٠) الصفدية (٢/ ٢٨٧)، جامع المسائل (٣/ ٣٧٥).

وقال رحمه الله: (فقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿مَحْذُورًا﴾ بيّن سبحانه أن كل ما يدعى من دونه من الملائكة والجن والإنس لا يملكون كشف الضر ولا تحويله، وأن هؤلاء المدعوين من الملائكة والأنبياء يتقربون إلى الله ويرجونه ويخافونه) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾، روى ابن أبي حاتم وغيره بأسانيد ثابتة، عن شعبة عن السُّدّي، سمع أبا صالح، عن ابن عباس في قول الله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾، هو عيسى، وأمه، وعزير، والملائكة، وكذلك في تفسير عطية عن ابن عباس قال: كان أهل الشرك يقولون نعبد الملائكة، والمسيح، وعزيراً.

وعن إسرائيل، عن السدي عن أبي صالح: عيسى، وعزير، والملائكة. وكذلك في تفسير أسباط عن السدي، قال: ذكروا أنهم اتخذوا الآلهة، وهو حين عبدوا الملائكة، والمسيح، وعزيراً، قال الله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾[2].

وفي صحيح البخاري وغيره عن ابن مسعود قال: كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن، فأسلم الجن وتمسك الآخرون بعبادتهم، فنزلت: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ . . .﴾ إلى آخر الآية[3]، وكذلك روى ابن أبي حاتم وغيره، عن ابن شوذب، عن مطر الوراق، قال: أنزلها الله في حيّ من العرب كانوا يعبدون حيّاً من الجن. وفي تفسير مقاتل: إن المشركين كانوا يعبدون الملائكة ويقولون: هي تشفع لنا عند الله، فلما ابتلوا بالقحط سبع سنين قيل لهم: ﴿ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾[4].

والآية تتناول كل من دُعي غير الله، وذلك المدعو يبتغي إلى الله الوسيلة ـ أي القربى والزلفى ـ ويرجو رحمة الله ويخاف عذابه، وهذا يدخل فيه الملائكة والأنبياء والصالحون ـ والإنس والجن، وقد قرأ طائفة «أولئك الذين تدعون» فبين أن الذين

---

(١) الرد على الأخنائي (٦).
(٢) ذكره السيوطي في الدر (٤/ ١٩٠) وعزاه لابن أبي حاتم.
(٣) البخاري (٤٧١٤)، ومسلم (٣٠٣٠). (٤) لم أجده.

يدعوهم المشركون هم يتقربون إلى الله ويرجونه ويخافونه، فكيف يجوز دعاؤهم؟ وهذا كقوله: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الكهف: ١٠٢]) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾، قال طائفة من السلف: كان أقوام يدعون العزير، والمسيح، والملائكة، فأنزل الله هذه الآية، وقد أخبر فيها أن هؤلاء المسؤولين يتقربون إلى الله ويرجون رحمته، ويخافون عذابه، وقد ثبت في الصحيح أن أبا هريرة قال: «يا رسول الله أي الناس أسعد بشفاعتك يوم القيامة، قال: يا أبا هريرة لقد ظننت أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أولى منك، لما رأيته من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله، يبتغي بها وجه الله»[٢]) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾، قال طائفة من السلف، ابن عباس وغيره: هذه الآية في الذين عبدوا الملائكة والأنبياء كالمسيح وعزير. وقال عبد الله بن مسعود: كان قوم من الإنس يعبدون قوماً من الجن فأسلم الجن وبقي أولئك على عبادتهم. فالآية تتناول كل من دعا من دون الله من هو صالح عند الله من الملائكة والإنس والجن، قال تعالى: هؤلاء الذين دعوتموهم ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ قال أبو محمد عبد الحق بن عطية في تفسيره: أخبر الله تعالى أن هؤلاء المعبودين يطلبون التقرب إليه، والتزلف إليه، وأن هذه حقيقة حالهم، والضمير في (ربهم) للمبتغين[٤] أو للجميع.

و(الوسيلة) هي القربة وسبب الوصول إلى البغية، وتوسل الرجل إذا طلب الدنو والنيل لأمرٍ مَّا، ومنه قول النبي ﷺ: «من سأل الله لي الوسيلة . . .»[٥] الحديث[٦].

---

(١) الرد على المنطقيين (٥٢٨ ـ ٥٢٩).
(٢) البخاري (١/ ٣٦).
(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٨٢٣).
(٤) في المطبوع (للمتبعين).
(٥) الحديث في مسلم.
(٦) المحرر الوجيز (٩/ ١١٩ ـ ١٢٠).

وهذا الذي ذكره، ذكر سائر المفسرين نحوه إلا أنه برز به على غيره فقال: و﴿أَيُّهُمْ﴾ ابتداء وخبره ﴿أَقْرَبُ﴾ و﴿أُولَٰئِكَ﴾ يراد بهم المعبودون، وهو ابتداء، وخبره (يَبْتَغُونَ) والضمير في ﴿يَدْعُونَ﴾ للكفار وفي ﴿يَبْتَغُونَ﴾ للمعبودين والتقدير: نظرهم وذكرهم ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾.

وهذا كما قال عمر بن الخطاب[١] ﷺ في حديث الراية بخيبر: فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها، أي يتبارون في طلب القرب، قال ﷺ: وطفف الزجاج في هذا الموضع فتأمله.

ولقد صدق في ذلك، فإن الزجاج[٢] ذكر في قوله: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ وجهين كلاهما في غاية الفساد، وقد ذكر ذلك عنه ابن الجوزي وغيره وتابعه المهدوي والبغوي وغيرهما، ولكن ابن عطية كان أقعد بالعربية والمعاني من هؤلاء[٣]، وأخبر بمذهب سيبويه والبصريين فعرف تطفيف الزجاج مع علمه بالعربية، وسبقه ومعرفته بما يعرفه من المعاني والبيان، وأولئك لهم براعة وفضيلة في أمور يبرزون فيها على ابن عطية، لكن دلالة الألفاظ من جهة العربية هو بها أخبر، وإن كانوا هم أخبر بشيء آخر من المنقولات أو غيرها) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (وقال في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ﴾ الآيتين، لما ذكر أن من السلف من ذكر أنهم من الملائكة، ومنهم من ذكر معهم الإنس، ومنهم من ذكر أنهم من الجن، يذكرون جنس الجن، يذكرون جنس المراد به في الآية على التمثيل، كما يقول الترجماني لمن سأله عن الخبز فيريه رغيفاً، والآية هنا قصد بها التعميم لكل ما يدعى من دون الله، فكل من دعا ميتاً أو غائباً من الأنبياء والصالحين سواء كان بلفظ الاستغاثة أو غيرها فقد تناولته هذه الآية، كما تتناول من دعا الملائكة والجن، ومعلوم أن هؤلاء يكونون وسائط فيما يقدره الله بأفعالهم، ومع هذا فقد نهى عن دعائهم، وبيَّن أنهم لا يملكون كشف الضر عن الداعين ولا تحويله، لا يرفعونه بالكلية ولا يحولونه من موضع إلى موضع، أو من حال إلى حال، كتغيير صفته أو قدره ولهذا قال: ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ فذكر نكرة تعم أنواع التحويل) ا.هـ[٥].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ

---

(١) الحديث متفق عليه.
(٢) زاد المسير (٥/ ٥٠).
(٣) هذه ميزة طيبة لابن عطية.
(٤) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٤٣٠ ـ ٤٣١).
(٥) مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب (٩/ ١٠٢)، وهو مختصر من الاستغاثة كما سيأتي بعد قليل.

﴿ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿مَحْذُورًا﴾ وهذه تتناول كل من يدعى من دون الله ممن هو مؤمن من الملائكة والإنس والجن، وقد فسرها السلف بهذا كله وقال ابن مسعود: كان أناس من الإنس يعبدون قوماً من الجن فأسلم الجن وتمسك الآخرون بعبادتهم فنزلت هذه الآية.

وقال السُّدي أيضاً عن أبي صالح عن ابن عباس: هو عيسى وأمه وعزير، وقال السدي أيضاً: ذكروا أنهم اتخذوا الآلهة، وهو حين عبدوا الملائكة والمسيح عليه السلام وعزير فقال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا﴾) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾.

ذم الله ﷻ مَنْ يدعو الملائكة والأنبياء وغيرهم من الصالحين، وبين أن هؤلاء الذين يدعونهم لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويله، وأنهم يتقربون إلى الله بالوسيلة وهي الأعمال الصالحة، ويرجون رحمته ويخافون عذابه فكيف يدعون المخلوقين ويذرون الخالق؟! وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الكهف]) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾، قال طائفة من السلف: كان أقوام يعبدون المسيح والعزير والملائكة فبين الله أنهم لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويله، كما بين أنهم لا يملكون الشفاعة وهذا لا استثناء فيه، وإن كان الله يجيب دعاءهم ثم قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ فبين أن هؤلاء المزعومين الذين يدعونهم من دون الله كانوا يرجون رحمة الله ويخافون عذابه ويتقربون إليه بالأعمال الصالحة كسائر عباده المؤمنين، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۚ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران]) ا.هـ[3].

---

(١) الرد على الأخنائي (٨٤). (٢) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٣٦٩).

(٣) مجموع الفتاوى (١٤/ ٤١٣)، جامع المسائل (٢/ ٩١) (٣/ ١٤٧).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾، فأخبر أن ما يدعى من دونه لا يملك كشف ضر ولا تحويله، وأنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه، ويتقربون إليه فهو سبحانه قد نفى ما من الملائكة والأنبياء، إلا من الشفاعة بإذنه، والشفاعة هي الدعاء) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾، قال طائفة من السلف: كان أقوام يدعون المسيح وعزيراً والملائكة، فقال الله تعالى لهم: إن هؤلاء الملائكة والأنبياء عباده، كما أن هؤلاء عباده، وهؤلاء يتقربون إلى الله، وهؤلاء يرجون رحمة الله، وهؤلاء يخافون عذاب الله، فالمشركون اتخذوا مع الله أنداداً يحبونهم كحب الله؛ واتخذوا شفعاء يشفعون لهم عند الله، ففيهم محبة لهم وإشراك بهم، وفيهم من جنس ما في النصارى من حب المسيح وإشراك به، والمؤمنون أشد حباً لله، فلا يعبدون إلا الله وحده، ولا يجعلون معه شيئاً يحبونه كمحبته، لا أنبياءه ولا غيرهم؛ بل أحبوا ما أحبه بمحبتهم لله، وأخلصوا دينهم لله وعلموا أن أحداً لا يشفع لهم إلا بإذن الله، فأحبوا عبد الله ورسوله محمداً ﷺ لحب الله وعلموا أنه عبد الله المبلغ عن الله، فأطاعوه فيما أمر وصدقوه فيما أخبر ولم يرجوا إلا الله، ولم يخافوا إلّا الله، ولم يسألوا إلا الله، وشفاعته لمن يشفع له هو بإذن الله، فلا ينفع رجاؤنا للشفيع، ولا مخافتنا له، وإنما ينفع توحيدنا وإخلاصنا لله، وتوكلنا عليه، فهو الذي يأذن للشفيع) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾، وفي التفسير الصحيح عن مجاهد: يبتغون إلى ربهم الوسيلة قال: عيسى ابن مريم وعزير والملائكة، وكذلك عن إبراهيم النخعي قال: كان ابن عباس يقول في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ هو عزير والمسيح والشمس والقمر، وكذلك روي عن شعبة عن السدي

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ١٢٩ ـ ١٣٠).
(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٥٢٨ ـ ٥٢٩).

عن أبي صالح عن ابن عباس قال: عيسى وأمه والعزير في هذه ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ وروى قتادة عن عبد الله بن معبد الزِّمّاني عن ابن مسعود قال: كان قبائل من العرب يعبدون صنفاً من الملائكة يقال لهم الجن ويقولون: هم بنات الله فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ معشر العرب ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ وفي رواية عن الزماني عن عبد الله بن عتبة بن مسعود قال: نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن أسلم الجنيون والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم فنزلت ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾. وكذلك قال ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ الملائكة تبتغي إلى ربها الوسيلة أيهم أقرب، ويرجون رحمته ويخافون عذابه، إن عذاب ربك كان محذوراً، قال: وهؤلاء الذين عبدوا الملائكة من المشركين، وكذلك ذكر العوفي في تفسيره عن ابن عباس قال: كان أهل الشرك يقولون: نعبد الملائكة والمسيح وعزيراً. وثبت أيضاً في صحيح البخاري عن ابن مسعود أنه قال: كان ناس يعبدون قوماً من الجن فأسلم الجن وبقي الإنس على كفرهم فأنزل الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ يعني: الجن، وهذا معروف عن ابن مسعود من غير وجه، وهذه الأقوال كلها حق؛ فإن الآية تعم كل من كان معبوده عابداً لله سواء كان من الملائكة أو من الجن أو من البشر. والسلف ﷺ في تفسيرهم يذكرون جنس المراد بالآية على نوع التمثيل كما يقول الترجمان لمن سأله ما معنى لفظ الخبز فيريه رغيفاً فيقول هذا، فالإشارة إلى نوعه لا إلى عينه، وليس مرادهم بذلك تخصيص نوع دون نوع مع شمول الآية للنوعين، فالآية خطاب لكل من دعا من دون الله مدعوا وذلك المدعو يبتغي إلى الله الوسيلة ويرجو رحمته ويخاف عذابه، وهذا موجود في الملائكة والجن والإنس، وقد اختار الطبري قول من فسرها بالملائكة أو بالجن لأنهم كانوا في زمن النبي ﷺ يبتغون إلى ربهم الوسيلة بخلاف المسيح والعزير فإنهما لم يكونا موجودين على عهده فلم يكونا حينئذ ممن يبتغي الوسيلة، إذ ابتغاء الوسيلة: العمل بطاعة الله تعالى والتقرب إليه بالصالح من الأعمال، فأما من كان لا سبيل له إلى العمل فبم يبتغي إلى ربه الوسيلة.

وهذا الذي قاله إن كان صواباً فهو أبلغ في النهي عن دعاء المسيح وعزير وغيرهما من الأموات من الأنبياء والصالحين، فإنه إذا كان الحيُّ الذي يتقرب إلى ربه

بالعمل لا يجوز دعاؤه، فدعاء الميت الذي لا يتقرب بالعمل أولى أن لا يجوز، وإن كانت الآية تعم هذا وهذا، فهي دالة على ذلك فدلالتها ثابتة على كل تقدير، والصحيح أنها تعم هؤلاء وهؤلاء، وذلك أن هؤلاء كانوا في حياتهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة وهو لم يقيد ذلك بزمن النزول، بل أطلق، وإذا قال القائل: آدم ونوح وإبراهيم وموسى يعبدون الله ولا يشركون به، علم أن المراد هذا دينهم، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۖ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: ٤٤] كان حكم النبيين بها قبل نزول الآية بدهر، والعرب تقول: مضى حتى لا يرجونه، وشربت الإبل حتى يجيء البعير، فيقول برأسه كذا، ومنه قراءة من قرأ ﴿وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ﴾ [البقرة: ٢١٤] وهذا ماض، وقد قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾﴾ [مريم] وهذا قد مضى قبل نزول القرآن والفعل مضارع، لأنه حكى حالهم الماضي، ولهذا تقول النحاة: هذا حكاية حال كقوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ [الكهف: ١٨].

فإن قيل: المعروف في مثل هذا أن يقال: كانوا يفعلونه كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ﴾ [الأنبياء: ٩٠] قيل: لكن إذا كان في الكلام ما يبين المراد لم يحتج إلى ذلك، لا سيما إذا ذكر ماض وحاضر وعمهم الخطاب فهنا يتعين حذف (كان) لأن المقصود الإخبار عن حال هؤلاء الحاضرين والحاضرون لا يخبر عنهم بكان، كما تقول المؤمنون من الأولين والآخرين يعبدون الله لا يشركون به.

والآية هنا قصد بها التعميم لكل ما يدعى من دون الله، وكل من دعا ميتاً أو غائباً من الأنبياء والصالحين سواء كان بلفظ الاستغاثة أو غيرها فقد تناولته هذه الآية كما تتناول من دعا الملائكة والجن.

ومعلوم أن هؤلاء كلهم يكونون وسائط فيما يقدره الله تعالى بأفعالهم، ومع هذا فقد نهى الله ﷻ عن دعائهم، وبيَّن أنهم لا يملكون كشف الضر عن الداعين ولا تحويله، ولا يرفعونه ولا يحولونه بالكلية، ولا يحولونه من موضع إلى موضع أيضاً، فلا يرفعونه ويحولونه من حال إلى حال كتغير صفته أو قدره، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ فذكر نكرة تعم أنواع التحويل، يقال: كشف البلاء أي أزاله ورفعه، ويقال:

كشف عنه أي أظهره وبينه، فمن الأول قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [النحل] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المؤمنون] وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف] من الثاني قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢] لم يقل: يوم يكشف الساق وهذا يبين خطأ من قال المراد. بهذه كشف الشدة وأن الشدة تسمى ساقاً، وأنه لو أريد ذلك لقيل يوم يكشف [عن الشدة] أو يكشف الشدة، وأيضاً فيوم القيامة لا يكشف الشدة عن الكفار، والرواية في ذلك عن ابن عباس ساقطة الإسناد[١] والاستغاثة هي طلب كشف الشدة. فكل من دعا ميتاً أو غائباً من الأنبياء والصالحين أو دعا الجن فقد دعا من لا يغيثه فلا يملك كشف الضر ولا تحويله، وقد قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ [الجن] كان أحدهم إذا نزل بوادٍ يقول: أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه، فقالت الجن: الإنس يستعيذوننا فزادوهم رهقاً. وقد نص الأئمة كأحمد وغيره على أنه لا يجوز الاستعاذة بمخلوق، وهذا مما استدلوا به على أن كلام الله ﷻ غير مخلوق، قالوا: لأنه قد ثبت عن النبي ﷺ، أنه استعاذ بكلمات الله وأمر بذلك كقوله ﷺ: «أعوذ بكلمات الله التامات كلها من شر ما خلق»[٢]، و«أعوذ بكلمات الله التامات كلها من غضبه وعذابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون»[٣] و«أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق وذرأ وبرأ، ومن شر ما ينزل من السماء ومن شر ما يعرج فيها ومن شر ما ذرأ في الأرض وما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن»[٤]) ا.هـ[٥].

وقال رحمه الله: (وذكر لفظ التبديل والتحويل كقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾، فالتبديل أن تبدِّل بخلافه، والتحويل أن تحوِّل من محل إلى محل، مثل استفزازه من الأرض ليخرجوه فإنهم لا يلبثون خلفه إلا قليلاً، ولا تتحول هذه السنة بأن يكون هو المخرج وهم اللابثون، بل

---

(١) ستتكلم في سورة القلم عن هذه الرواية. (٢) مسلم (١٧/ ٣١ ـ ٣٢) شرح النووي.
(٣) أبو داود (٢٨٩٣)، والترمذي (٣٥٢٨)، والنسائي في اليوم والليلة (٧٦٥، ٧٦٦)، وأحمد (٢/ ١٨١)، والحاكم (١/ ٥٨٤)، وابن السني (٧٤٨) والحديث حسن.
(٤) أحمد (٣/ ٤١٩)، وابن السني (٢٢٦) والحديث حسن.
(٥) الاستغاثة (٢٨٢ ـ ٢٨٨).

متى أخرجوه خرجوا خلفه، ولو مكث لكان هذا استصحاب حالٍ، بخلاف ظهور الكفار فإنه كان تبديلاً لظهور المؤمنين وظهور الكفار، إذ كان لا بد من أحدهما.

وأما أهل المكر السيِّئ والكفار فهي سنّة تبديل، لا بد لهم من العقوبة لا يبدلون بها غيرها، ولا تتحول عنهم إلى المؤمنين، وهو وعيد لأهل المكر السيّئ أنه لا يحيق إلا بأهله، ولن يتبدلوا به خيراً يتضمن نفياً وإثباتاً، فلهذا نفى عنه التبديل والتحويل) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (وفي صحيح البخاري عن ابن مسعود في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ قال: كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن، فأسلم أولئك الجن والإنس يعبدونهم. ففي هذا أنه لم يضر الذين أسلموا عبادة غيرهم بعد الإسلام لهم، وإن كانوا هم أضلوهم أولاً) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (وأما قربه من عابديه ففي مثل قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨]، و«رحمته» اسم جامع لكل خير و«عذابه» اسم جامع لكل شر) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (وقوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥] أي القربة إليه بطاعته؛ وطاعة رسوله طاعته، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] فهذا التوسل الأول هو أصل الدين، وهذا لا ينكره أحد من المسلمين) ا.هـ[٥].

وقال رحمه الله: (فلفظ الوسيلة مذكور في القرآن في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥] وفي قوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾، فالوسيلة التي أمر الله أن تبتغى إليه وأخبر عن ملائكته وأنبيائه أنهم يبتغونها إليه، هي ما يتقرب

---

(١) جامع الرسائل (١/ ٥٥ ـ ٥٦).
(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ٢٤).
(٣) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٤٧).
(٤) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦١ ـ ٦٢).
(٥) مجموع الفتاوى (١/ ٢٠١).

إليه من الواجبات والمستحب، فهذه الوسيلة التي أمر الله المؤمنين بابتغائها تتناول كل واجب ومستحب، وما ليس بواجب ولا مستحب لا يدخل في ذلك سواء كان محرماً أو مكروهاً أو مباحاً.

فالواجب والمستحب هو ما شرعه الرسول فأمر به أمر إيجاب أو استحباب، وأصل ذلك الإيمان بما جاء به الرسول، فجماع الوسيلة التي أمر الله الخلق بابتغائها هو التوسل إليه باتباع ما جاء به الرسول، لا وسيلة لأحد إلى الله إلا ذلك) ا.هـ[1].

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ الآيتين، لما ذكر أن من السلف من ذكر أنهم من الملائكة، ومنهم من ذكر أنهم من الإنس، ومنهم من ذكر أنهم من الجن.

(لفظ السلف[2] يذكرون جنس المراد من الآية على التمثيل، كما يقول الترجمان لمن سأله عن الخبز فيريه رغيفاً، والآية هنا قصد بها التعميم لكل ما يدعى من دون الله، فكل من دعا ميتاً أو غائباً من الأنبياء والصالحين سواء كان بلفظ الاستغاثة أو غيرها فقد تناولته هذه الآية كما تتناول من دعا الملائكة والجن، ومعلوم أن هؤلاء يكونون وسائط فيما يقدره الله بأفعالهم، ومع ذلك فقد نهى عن دعائهم، وبين أنهم لا يملكون كشف الضر عن الداعين ولا تحويله، ولا يرفعونه بالكلية، ولا يحولونه من موضع إلى موضع، أو من حال إلى حال، كتغيير صفته أو قدره، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ فذكر نكرة تعم أنواع التحويل، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ [الجن] كان أحدهم إذا نزل بواد يقول: أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه، فقالت الجن: الإنس تستعيذ بنا، فزادوهم رهقاً، وقد نص الأئمة ـ كأحمد وغيره ـ على أن لا تجوز الاستعاذة بمخلوق، وهذا مما استدلوا به على أن كلام الله غير مخلوق، لما ثبت عنه ﷺ: أنه استعاذ بكلمات الله، وأمر بذلك، فإذا كان لا يجوز ذلك، فلأن لا يجوز أن يقول: أنت خير مستعاذ يستعاذ به أولى، فالاستعاذة والاستجارة، والاستغاثة، كلها من نوع الدعاء، أو الطلب، وهي ألفاظ متقاربة.

ولما كانت الكعبة بيت الله الذي يدعى ويذكر عنده، فإنه سبحانه يستجار به هناك، وقد يستمسك بأستار الكعبة كما يتعلق المتعلق بأذيال من يستجير به، كما قال عمرو بن سعيد: إن الحرم لا يعيذ عاصياً ولا فاراً بدم ولا فاراً بخربة، وفي الصحيح:

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ١٩٩ ـ ٢٠٠).
(٢) أقوال السلف مرّ تخريجها.

«يعوذ عائذ بهذا البيت»[١] والمقصود أن كثيراً من الضالين يستغيثون بمن يحسنون به الظن، ولا يتصور أن يقضي لهم أكثر مطالبهم، كما تخبر به الشياطين من الأمور الغائبة [يكذبون] في أكثره، بل يصدقون في واحدة، ويكذبون في أضعافها، ويقضون لهم حاجة واحدة ويمنعونهم أضعافها، يكذبون فيما أخبروا به وأعانوا عليه، لإفساد حال الرجال في الدين والدنيا، ويكون فيه شبهة للمشركين، كما يخبر الكاهن ونحوه.

والله سبحانه جعل الرسول مبلغاً لأمره ونهيه ووعده ووعيده، وهؤلاء يجعلون الرسل والمشايخ يدبرون العالم بقضاء الحاجات وكشف الكربات، وليس هذا من دين المسلمين، بل النصارى تقول هذا في المسيح وحده بشبهة الاتحاد والحلول، ولهذا لم يقولوه في إبراهيم وموسى وغيرهم، مع أنهم في غاية الجهل في ذلك، فإن الآيات التي بعث بها موسى أعظم، ولو كان هذا ممكناً لم يكن للمسيح خاصية به، بل موسى أحق.

ولهذا كنت أتنزل مع علماء النصارى إلى أن أطالبهم بالفرق بين المسيح وغيره من جهة الإلهية فلا يجدون فرقاً، بل أبين لهم أن ما جاء به موسى من الآيات أعظم، فإن كان حجة في دعوى الإلهية فموسى أحق، وأما ولادته من غير أب فهو يدل على قدرة الخالق، لا على أن المخلوق أفضل من غيره)[٢].

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾.

(وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، فأخبر أنه لا بد لكل قرية من هلاك، أو عذاب شديد بدون الهلاك، وذلك بذنوبهم بعد إرسال الرسل لهم) ا.هـ[٣].

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾.

(وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾، بين سبحانه أنْ ما[٤] منعه أن يرسل

---

(١) مر الكلام عليه.
(٢) مجموع الفتاوى (١٥/٢٢٦ ـ ٢٢٨).
(٣) الرد على الأخنائي (٥٥).
(٤) «أن» مخففة من الثقيلة و (ما) نافية، ورُسمت في الأصل: «أنما» غير مفصولة.

بالآيات إلا تكذيب الأولين بها، الذي استحقوا بها الهلاك، فإذا كذب بها هؤلاء استحقوا ما استحقه أولئك من عذاب الاستئصال، وهذا المعنى مذكور في عامة كتب التفسير والحديث، وغيرها من كتب المسلمين، وهو معروف بالأسانيد الثابتة عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان، فقد ذكر المفسرون ما رواه أهل التفسير والحديث والمسند وغيرهم من حديث الأعمش، عن جعفر بن إياس عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: «سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحي عنهم الجبال حتى يزرعوا، قال: فقيل له: إن شئت تستأني بهم، وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا هلكوا كما أهلكت من قبلهم، قال: لا بل أستأني بهم، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾»[1]، وروى ابن أبي حاتم وغيره، عن مالك بن دينار، قال: سمعت الحسن البصري في قوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾، قال: رحمة لكم أيتها الأمة، إنا لو أرسلنا بالآيات فكذبتم بها، أصابكم ما أصاب من قبلكم[2]) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾، والآيات التي خوف الله بها عباده تكون سبباً في شر ينزل بالناس، فمن اتقى الله بفعل ما أمر به وقي ذلك الشر، ولو كان مما لا حقيقة له أصلاً لم يخف أحداً إذا علم أنه لا شر في الباطن، وإنما يبقى التخويف للجاهل الفدم كما يفزع الصبيان بالخيال) ا.هـ[4].

وقال رحمه الله: (وقد قال: ﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ وإخباره بأنه يخوف عباده بذلك يبين أنه قد يكون سبباً لعذاب ينزل كالرياح العاصفة الشديدة وإنما يكون ذلك إذا كان الله قد جعل ذلك سبباً لما ينزل في الأرض) ا.هـ[5].

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا ٦٠﴾.

---

(١) أحمد (١/٢٥٨) والنسائي في التفسير (٣١٠) وابن جرير (١٥/٧٤) والحاكم في المستدرك (٢/٣٦٢) والبزار كما في كشف الأستار (٢٢٢٥) والحديث صحيح والله أعلم.

(٢) الطبري (١٥/١٠٨).

(٣) الجواب الصحيح (٦/٤٣١ ـ ٤٣٣).

(٤) منهاج السنة (٥/٢٩٩).

(٥) مجموع الفتاوى (٣٥/١٦٩).

(وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال ابن عباس[١]: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به، فهذا الذي كان من خصائصه ومن أعلام نبوته) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (وكذلك أيضاً لما أخبرهم بالإسراء وشجرة الزقوم أنكر ذلك طائفة منهم، وزعموا أن العقل ينفي ذلك وأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ وفي الصحيح عن ابن عباس أنه قال: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (قال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي محنة وابتلاء للناس ليتميز المؤمن عن الكافر، وكان فيما أخبرهم به أنه رأى الجنة والنار وهذا مما يخوفهم به قال تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (ولهذا قال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ قال ابن عباس هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أُسريَ به، وهذا كما قال في الآية: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجم]) ا.هـ[٥].

وقال رحمه الله: (وقول ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ المراد به في حق من شك في خلافة أبي بكر، وصدق ابن عباس رضي الله عنهما، فإنها رؤيا حق، من شاء الله فتنته، وأما من أراد الله هداه، فذلك خير لمزيد اجتهاده وموافقته الحق) ا.هـ[٦].

وقال رحمه الله: (وفي الصحيحين[٧] عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ قال: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أُسريَ به، وهذه «رؤيا الآيات» لأنه أخبر الناس بما رآه بعينه ليلة

---

(١) البخاري (٦/ ١٠٧ ـ ١٠٨).
(٢) النبوات (١١٧)، جامع المسائل (١/ ٢١٣).
(٣) درء تعارض العقل (٧/ ٦١).
(٤) النبوات (١١٧).
(٥) النبوات (٦).
(٦) مختصر الفتاوى المصرية (٢٠٧).
(٧) هو في البخاري فقط كما مرّ.

المعراج، فكان ذلك فتنة لهم، حيث صدقه قوم وكذبه قوم، ولم يخبرهم بأنه رأى ربَّهُ بعينه وليس في شيء من أحاديث المعراج الثابتة ذكر ذلك، ولو كان قد وقع ذلك لذكره كما ذكر ما دونه) ا.هـ[١].

﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

(وهذا مما استدل به أهل السنة على أن آدم وغيره من الأنبياء والأولياء أفضل من جميع الملائكة؛ لأن الله أمر الملائكة بالسجود له إكراماً له؛ ولهذا قال إبليس: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ﴾؟ فدل على أن آدم كرم على من سجد له) ا.هـ[٢].

﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾.

(وقد قال الله تعالى في كتابه مخاطباً للشيطان: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ وقد فسر ذلك طائفة من السلف بصوت الغناء، وهو شامل له ولغيره من الأصوات المستفزة لأصحابها عن سبيل الله) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى لإبليس: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ واستفزازه إياهم بصوته يكون بالغناء ـ كما قال من قال من السلف ـ وبغيره من الأصوات كالنياحة وغير ذلك، فإن هذه الأصوات كلها توجب انزعاج القلب والنفس الخبيثة إلى ذلك، وتوجب حركتها السريعة، واضطرابها حتى يبقى الشيطان يلعب بهؤلاء أعظم من لعب الصبيان بالكرة، والنفس متحركة؛ فإن سكنت فبإذن الله، وإلا فهي لا تزال متحركة) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (وقد قال الله للشيطان: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ فالصوت الشيطاني يستفز بني آدم وقال النبي ﷺ: «إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين»[٥] وذكر صوت النغمة وصوت المعصية، ووصفهما بالحمق والفجور، وهو

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٥١٠).
(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧).
(٣) مجموع الفتاوى (١١/ ٦٤١ ـ ٦٤٢).
(٤) مجموع الفتاوى (١٥/ ٣١٤).
(٥) رواه البيهقي في سننه (٤/ ٦٩)، والحاكم (٤/ ٤٠) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٢٩٣)، والبغوي في السنة (٥/ ٤٣١)، والبزار (١/ ٣٨١)، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ١٧) لأبي يعلى والبزار ولم أجده عند أبي يعلى والحديث فيه محمد بن عبد الرحمن بن =

الظلم والجهل) ا.هـ[١].

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾.

قال رحمه الله: في سياق المفاضلة بين البشر والملائكة (قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾، فدل على أنهم لم يفضلوا على الجميع، وقوله: ﴿مِّمَّنْ﴾ للتبعض) ا.هـ[٢].

﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾.

(وقوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ﴾ إذ الإمام [هو] الذي يؤتمّ به، أي يقتدى به، وقد قيل: إن المراد به هو الله الذي يهديهم، والأول أصح) ا.هـ[٣].

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾.

(وكذلك قوله: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ ضمن معنى يزيغونك ويصدونك) ا.هـ[٤].

تفسير الآية (٧٣) و(٧٦) والربط بينهما:

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾.

(وقال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾، بين سبحانه أنهم كادوا أن يمنعوه بكل طريق، فإن الإنسان إنما يتم عمله بإرادته وقدرته فمع الإرادة الجازمة، والقدرة التامة يجب وجود المقدور، وإذا تعذر أحدهما امتنع، فطلبوا تغيير إرادته ليركن إليهم فيغير ما أُوحيَ إليه، فعصمه الله وثبته.

= أبي ليلى وهو ضعيف وله شواهد ذكرها الشيخ ناصر الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٤٢٧).

(١) الاستقامة (١/ ٣٧٩).
(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ٣٥٥).
(٣) منهاج السنة (٧/ ١٤٢).
(٤) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٤٢).

ثم طلبوا تعجيزه بأن يستفزوه ويخرجوه، حتى يعجز عن تبليغ رسالة ربه، ولو كان ذلك لعاجلهم الله بالعقوبة، أسوة من تقدمه من الرسل، فإن الله كان إذا أراد إهلاك أمة، أخرج نبيها منها، ثم أهلكها، لا يهلكها وهو بين أظهرها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال]، وهذا بعد قوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال]، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

فلما خرج من بينهم بالهجرة أتاهم الله بعذاب أليم يوم (بدر) وغيره، فقوله: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ إشارة إلى سعيهم في إفساد إرادته وقوله: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ إشارة إلى سعيهم في تعجيزه) ا.هـ[1].

﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾.

(اعلم أنه قد ذكر الله تعالى لفظ سننه في مواضع من كتابه فقال تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾، وقال: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ [الأحزاب]، وقال تعالى في آخر السورة: ﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب]، وقال: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]. وقال: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٥] وقال: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح] وقال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ [آل عمران: ١٣٧] وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الكهف: ٥٥].

فهذه كلها تتعلق بأوليائه: كمطيعيه وعصاته، كالمؤمنين والكافرين؛ فسنته في هؤلاء إكرامهم، وسنته في هؤلاء إهانتهم وعقوبتهم.

فأما الأولى: فإنها تتعلق بالرسل لأنه لا حرج عليهم فيما فرض الله تعالى لهم،

---

(١) الجواب الصحيح (٥/ ٣٣٦ ـ ٣٣٩).

وهذا كقوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [التحريم: ٢] والمفروض هنا مباح مقدر محدود مثل إباحة زوجة المتبنى بعد أن قضى منها وطراً وطلقها، لا بأن تؤخذ منه بغير اختياره، وقد قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٠] أي أوحينا وحرمنا قبل.

وهنا المراد به سنته في رسله: أنه أباح لهم الأزواج وغيرها، كما قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨].

وأنه لا حرج عليهم في ذلك، فلم يكن محمد ﷺ بدعاً من الرسل، ولم يقل هنا: ولن تجد لسنتنا تبديلاً، فإنه لا نبي بعد محمد.

والأربعة البواقي تتضمن عقوبة الكفار والمنافقين، **فالأولى**: قوله: إنهم لو استفزوه فأخرجوه لم يلبثوا خلفه إلا قليلاً كسنة من أرسل قبله من الرسل؛ فإما أن يقال: وقع هذا الإخراج بالهجرة ولم يلبثوا خلفه إلا قليلاً، وهو ما أصابهم يوم بدر، وإما أن يقال: لم يقع.

والثانية: قوله: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٦٠]، كما أصاب من قبلهم من أهل الكتاب، فإن الله أخرجهم، فإن لم ينته غي هؤلاء بل أظهروا الكفر كما أظهره أولئك أخرجناهم بخلاف ما إذا كتموه.

وهذه السنة تتضمن أن كل من جاور الرسول ﷺ متى أظهر مخالفته مكّن الله الرسول من إخراجه، وهذه في أهل العمد والمنافقين، وقد يقال: هي لهم مع المؤمنين أبداً.

والثالثة: في أهل المكر السيء، وأن سنة الله أن ينصر رسله والذين آمنوا على أعدائهم وينتقم منهم وقال هنا: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

والرابعة: في حال الكفار مع المؤمنين.

وهذه السنن كلها سنن تتعلق بدينه وأمره ونهيه ووعده ووعيده، وليست هي السنن المتعلقة بالأمور الطبيعية كسنته في الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من العادات، فإن هذه السنة ينقضها إذا شاء بما شاءه من الحكم: كما حبس الشمس على يوشع، وكما شق القمر لمحمد ﷺ، وكما ملأ السماء بالشهب، وكما أحيا الموتى غير مرة، وكما جعل العصا حية، وكما أنبع الماء من الصخرة بعصا، وكما أنبع الماء من بين أصابع الرسول ﷺ.

وقد ذكر بعض هذه الآيات السهروردي في المنقول في «الألواح العمادية» وفي «المبدأ والمعاد» محتجاً بها على ما يقوله هو وأمثاله من المتفلسفة:

أن العام لم يزل ولا يزال هكذا، بناء على أن هذه سنة الرب ﷻ وعادته وهي لا تبديل [لها]، إذ كان عندهم ليس فاعلاً بمشيئته واختياره، بل موجب بذاته.

فيقال لهم: احتجاجكم على هذا بالقرآن في غاية الفساد، فإن القرآن يصرح بنقيض مذهبكم في جميع المواضع، وقد علم بالاضطرار أن ما يقولونه مخالف لما جاء به الرسول ﷺ فاحتجاجكم بهذا أفسد من احتجاج النصارى على أن محمداً شهد بأن دينهم بعد النسخ والتبديل حق بآيات من القرآن حرفوها عن مواضعها، قد تكلمنا عليها في «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» فإن النصارى وإن كانوا كفاراً بتبديل الكتاب الأول وتكذيب الثاني، فهم خير منكم من وجوه كثيرة، فإنهم يقولون بالأصول الكلية التي اتفقت عليها الرسل، وإن كانوا حرَّفوا بعض ذلك، كالإيمان بأنّ الله خالق كل شيء، وأنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، والإيمان بملائكته ورسله واليوم الآخر والجنة والنار وغير ذلك مما تكذبون أنتم به.

وأما بيان الدلالة فمن وجوه:

«أحدها»: أن يقال: العادات الطبيعية ليس للرب فيها سنة لازمة، فإنه قد عُرف بالدلائل اليقينية أن الشمس والقمر والكواكب مخلوقة بعد أن لم تكن، فهذا تبديل وقع وقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

وأيضاً، فقد عرف انتقاض عامة العادات، فالعادة في بني آدم ألا يخلقوا إلا من أبوين، وقد خلق المسيح من أم، وحواء من أب، وآدم من غير أم ولا أب، وإحياء الموتى متواتر مرات متعددة، وكذلك تكثير الطعام والشراب لغير واحد من الأنبياء والصالحين عليهم السلام.

وأيضاً، فعندكم تغيرات وقعت في العالم كالطوفانات الكبار فيها تغيير العادة.

وهذا خلاف عادته التي وعد بها وأخبر أنها لا تتغير لنصرة أوليائه وإهانة أعدائه، فإن هذا علم بخبره وحكمته.

أما خبره فإنه أخبر بذلك ووعد به، وهو الصادق الذي لا يخلف الميعاد، وهذا يوافق طرق جميع طوائف أهل الملل، ويقولون: مقتضى حكمته أن يكون العاقبة والنصر لأوليائه دون أعدائه، كما قد بسط ذلك في مواضع.

وأما الأمور الطبيعية فإما أن تقع بمحض المشيئة على قول، وإما أن تقع بحسب الحكمة والمصلحة على قول، وعلى كلا التقديرين فتبديلها وتحويلها ليس ممتنعاً كما في نسخ الشرائع وتبديل آية بآية، فإنه إن علق الآية بمحض المشيئة فهو يفعل ما يشاء، وإن علقها بالحكمة مع المشيئة، فالحكمة تقتضي تبديل بعض ما في العالم، كما وقع كثير من ذلك في الماضي وسيقع في المستقبل، فعلم أن هذه السنن دينيات لا طبيعيات.

ومن هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرة لنا، ولولا القياس واطراد فعله وسنته لم يصح الاعتبار بها، إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره، كالأمثال المضروبة في القرآن، وهي كثيرة.

وذكر لفظ التبديل والتحويل كقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ [الإسراء] فالتبديل أن تبدل بخلافه، والتحويل أن تحول من محل إلى محل، مثل استفزازه من الأرض ليخرجوه فإنهم لا يلبثون خلفه إلا قليلاً، ولا تتحول هذه السنة بأن يكون هو المخرج وهم اللابثون، بل متى أخرجوه خرجوا خلفه، ولو مكث لكان هذا استصحاب حال، بخلاف ظهور الكفار فإنه كان تبديلاً لظهور المؤمنين وظهور الكفار، إذ كان لا بد من أحدهما) ا.هـ[1].

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾.

(وقد شرع الله تعالى السماع للمسلمين: في المغرب، والعشاء، والفجر، قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.

وبهذا مدح عبد الله بن رواحة النبي ﷺ حيث قال:

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... إذا انشق معروف من الفجر ساطع

يبيت يجافي جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالكافرين المضاجع

أتى بالهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أنّ ما قال واقع)ا.هـ[2]

وقال رحمه الله: (وأعظم سماع شَرَعَهُ في الفجر، قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾) ا.هـ[3].

---

(١) جامع الرسائل (١/ ٤٩ ـ ٥٦).
(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٦٢٨ ـ ٦٢٩).
(٣) مختصر الفتاوى المصرية (٥٩١).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ تشهده ملائكة الليل والنهار، وقد قيل: يشهده الله وملائكته) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (فإن الغاسق قد فسر بالليل، كقوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ وهذا قول أكثر المفسرين) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (وكذلك قال: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ والدلوك هو الزوال، في أصح القولين يقال: دلكت الشمس، وزالت، وزاغت، ومالت، فذكر الدلوك والغسق، وبعد الدلوك يصلى الظهر والعصر، وفي الغسق تصلى المغرب والعشاء، ذكر أول الوقت وهو الدلوك، وآخر الوقت وهو الغسق، والغسق اجتماع الليل وظلمته) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (مثال ذلك قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ فسر الدلوك بالزوال وفسر بالغروب، وليس بقولين بل اللفظ يتناولهما معاً فإن الدلوك هو الميل ودلوك الشمس ميلها.

ولهذا الميل مبتدأ ومنتهى، فمبتداه الزوال، ومنتهاه الغروب، واللفظ متناول لهما بهذا الاعتبار.

ومثله أيضاً تفسير «الغاسق» بالليل، وتفسيره بالقمر، فإن ذلك ليس باختلاف؛ بل يتناولهما لتلازمهما، فإن القمر آية الليل ونظائره كثيرة) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (ولهذا ذكر الله المواقيت تارة خمساً، ويذكرها ثلاثاً تارة كقوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هود: ١١٤] وهو وقت المغرب والعشاء وكذلك قال الله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ والدلوك هو الزوال، وغسق الليل هو اجتماع ظلمة الليل، وهذا يكون بعد مغيب الشفق.

فأمر الله بالصلاة من الدلوك إلى الغسق، فرض في ذلك الظهر والعصر، والمغرب والعشاء، ودل ذلك على أن هذا كله وقت الصلاة، فمن الدلوك إلى المغرب وقت الصلاة، ومن المغرب إلى غسق الليل وقت الصلاة وقال: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ لأن الفجر خصت بطول القراءة فيها، ولهذا جعلت ركعتين في الحضر والسفر، فلا تقصر ولا

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٤٧٢).
(٢) مجموع الفتاوى (١٧/ ٥٠٥).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٤/ ٢٥).
(٤) مجموع الفتاوى (١٥/ ١١ ـ ١٢).

تجمع إلى غيرها، فإنه عوّض بطول القراءة فيها عن كثرة العدد) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (وكذلك لما سماها قرآناً في قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ دل على وجوب القرآن فيها، ولما سماها ركوعاً وسجوداً في مواضع دل على وجوب الركوع والسجود فيها) ا.هـ[٢].

قال القاسمي في تفسيره:

(قال ابن تيمية: الدلوك: الزوال عند أكثر السلف وهو الصواب) ا.هـ[٣].

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: (بخلاف زوال الشمس فإنه فيه نقص لها وانخفاض عن حال كمال ارتفاعها، والزوال مبدأ حصول الأفياء المزيلة لشعاعها، فإن الظل يكون محدوداً قبل طلوعها قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الفرقان] فإذا طلعت أنيط شعاعها على وجه الأرض ونسخ الظل الذي يقع عليه فنسخ الظلال الشرقية كلها، ولا يزال ينسخ الغربية شيئاً بعد شيء حتى تستوي الشمس، فيكون قد نسخ الظلال الشرقية والغربية جميعاً، وهذا غاية نسخ الشمس الظلال، فإذا زالت انحطت وانخفضت فقال الأفياء للفيء، ويعود فيعود الفيء إلى ناحية المشرق بعد أن كان قد نسخ عنها، ولا يزال الفيء يمتد ويطول كلما انخفضت الشمس إلى أن تغرب فيعود الظل ممدوداً بأفولها، كما يكون ممدوداً قبل طلوعها، فكان أفولها غاية بطلان أثرها في ذلك الزوال مبدأ ذلك، فالأفول كما نقصها الذي ابتدأ حتى الزوال وكأنه قال: زوالها، لهذا فسر دلوكها، وبهذا وهذا في قوله ﷻ: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ فطائفة من السلف قالوا دلوكها غروبها والتحقيق أن الزوال أول دلوكها، والغروب كمال دلوكها، فمن حين الزوال إلى الغروب دالكة كما هي زائلة بارحة، ولهذا سميت براح ويقال: دلكت براح ولهذا قال تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ فالدلوك يتناول الظهر والعصر، وغسق الليل يتناول المغرب والعشاء. وصلاة العشي وفيها[٤] مشترك عند الحاجة وكذلك صلاة العشاء، فإن ذلك كله دلوك وهذا كله غسق ولا يجوز تفويت صلاة غسق الليل إلى الفجر قال ﷺ في الحديث الصحيح: «من فاتته صلاة العصر

---

(١) مجموع الفتاوى (٢١/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥).
(٢) القواعد النورانية (٦٣).
(٣) ذكره القاسمي في تفسيره (١٠/ ٢٥٩).
(٤) لعلها: وقتها.

فكأنما وتر أهله وماله»[١] وقال ﷺ: «من فاتته صلاة العصر فقد حبط عمله»[٢] وهي الصلاة الوسطى كما دل على ذلك الأحاديث الصحيحة، وهي بين صلاتين ليل وصلاة نهار) ا.هـ[٣].

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾.

(إذا تبين هذا فقد حدث العلماء المرضيون، وأولياؤه المقبولون: أن محمداً رسول الله ﷺ يجلسه ربه على العرش معه.

روى ذلك محمد بن فضيل عن ليث عن مجاهد[٤] في تفسير: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ وذكر ذلك من وجوه أخرى مرفوعة وغير مرفوعة قال ابن جرير[٥]: وهذا ليس مناقضاً لما استفاضت به الأحاديث من أن المقام المحمود هو الشفاعة، باتفاق الأئمة من جميع من ينتحل الإسلام ويدعيه، لا يقول إن إجلاسه على العرش منكراً وإنما أنكره بعض الجهمية، ولا ذكره في تفسير الآية منكر، وإذا ثبت فضل فاضلنا على فاضلهم ثبت فضل النوع على النوع، أعني صالحنا عليهم) ا.هـ[٦].

وقال رحمه الله: (وقال: حدثنا أبو بكر حدثنا ابن فضيل عن ليث عن مجاهد ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ قال: يقعده معه على العرش) ا.هـ[٧].

وقال رحمه الله: (ولهذا قال بعض السلف: النافلة لا تكون إلا لرسول الله ﷺ لأن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخّر، وغيره يحتاج إلى المغفرة، وتأوّل على هذا قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ وليس إذا فعل نافلة وضيع فريضة تقوم النافلة مقام الفريضة مطلقاً، بل قد تكون عقوبته على ترك الفريضة أعظم من ثواب النافلة) ا.هـ[٨].

وقال رحمه الله: (ولهذا قالوا في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ أن النافلة مختصة برسول الله ﷺ لأن الله غفر له، وغيره له ذنوب، فالصلوات تكون سبباً لمغفرتها، وهذا القول وإن كان فيه كلام ليس هذا موضعه فالمقصود أن لفظ النافلة

---

(١) مرّ تخريجه. (٢) مرّ تخريجه.
(٣) المستدرك على مجموع الفتاوى مخطوط (تحت الطبع).
(٤) ابن جرير (١٥/ ١٤٥) وابن الجوزي (٥/ ٧٦) عن مجاهد وعزاه في «زاد المسير» لابن عباس أيضاً (٥/ ٧٦) ورواه ابن جرير مرفوعاً، وليث هو ابن أبي سليم وهو متروك.
(٥) ابن جرير (١٥/ ١٤٧). (٦) مجموع الفتاوى (٤/ ٣٧٤).
(٧) الفتاوى (٥/ ٧٣). (٨) مجموع الفتاوى (٧/ ٤٩١).

توسع فيه، فقد يسمى به ما أمر به، وقد ينفى عن التطوع) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (قال لنبيه ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ فإن السلطان النصير يجمع الحجة والمنزلة عند الله، وهو كلماته الدينية والقدرية والكونية عند الله بكلماته الكونيات، ومعجزات الأنبياء عليهم السلام تجمع الأمرين، فإنها حجة على النبوة من الله وهي قدرية.

وأبلغ ذلك القرآن الذي جاء به محمد ﷺ، فإنه هو شرع الله وكلماته الدينيات، وهو حجة محمد ﷺ على نبوته، ومجيئه من الخوارق للعادات، فهو الدعوة وهو الحجة والمعجزة) ا.هـ[٢].

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾.

(وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾، ذلك أن الشفاء إنما يحصل لمن يتعمد الدواء وهم المؤمنون وضعوا دواء القرآن على داء قلوبهم) ا.هـ[٣].

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾.

(والناس قد تنازعوا في قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ هل المراد به روح ابن آدم، أو ملك من الملائكة، أو غير ذلك؟ على قولين مشهورين وبتقدير أن يكون المراد روح الإنسان، فالنص لم يخبر بكيفيتها، لأن الإخبار بالكيفية إنما يكون فيما له نظير يماثله، وليست الروح من جنس ما نشهده من الأعيان، فلا يمكن تعريفنا بكيفيتها، وإن كانت لها كيفية في نفسها) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (فقيل لهم: ﴿الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وفي الصحيحين[٥] أن الخضر قال لموسى لما نقر عصفور في البحر: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر) ا.هـ[٦].

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٣/ ٣١).
(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٣٢٤).
(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٣).
(٤) درء تعارض العقل (١٠/ ١٤٣).
(٥) البخاري (١٢٢) وهو من إفراده.
(٦) مجموع الفتاوى (١٦/ ٤٢٥).

(قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ فقد بين عجز الخلائق عن الإتيان بمثله، مع أنهم قادرون على تبليغه وتلاوته، فعلم أن هذا المسموع لا يقال إنه مثل كلام الله كما سماه كلامه؛ لكنه كلامه بواسطة المبلغ لا بطريق المباشرة) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾، فأخبر أنه لا يقدر الإنس والجن إلى يوم القيامة أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وهذا الخبر قد مضى له أكثر من سبعمائة سنة، ولم يقدر أحد من الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (وقد قال ﷻ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ وهذا التحدي والتعجيز ثابت في لفظه ونظمه ومعناه كما هو مذكور في غير هذا الموضع) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ فالإنس والجن إذا اجتمعوا لم يقدروا أن يأتوا بمثل هذا القرآن مع قدرة كل قارئ على أن يقرأه ويبلغه) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (والقرآن نفسه هو قول الله، وفيه شهادة الله بما أخبر به الرسول، وإنزاله على محمد ﷺ وإتيان محمد به هو آية وبرهان، وذلك من فعل الله، إذا كان البشر لا يقدرون على مثله: لا يقدر عليه أحد من الأنبياء ولا الأولياء ولا السحرة ولا غيرهم، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾، ومحمد ﷺ أخبر بهذا في أول أمره، إذ كانت هذه الآية في سورة (سبحان) وهي مكية.

صدرها بذكر الإسراء الذي كان بمكة باتفاق الناس وقد أخبر خبراً وأكده بالقسم، عن جميع الثقلين، إنسهم وجنهم، أنهم إذا اجتمعوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله، بل يعجزون عن ذلك، وهذا فيه آيات لنبوته.

منها إقدامه على هذا الخبر العظيم، عن جميع الإنس والجن، إلى يوم القيامة

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٥٤٢).
(٢) الجواب الصحيح (١/ ٤٠٩).
(٣) مجموع الفتاوى (٣٣/ ٤٢ ـ ٤٣).
(٤) مجموع الفتاوى (١٢/ ٧٦).

بأنهم لا يفعلون هذا، بل يعجزون، هذا لا يقدم عليه من يطلب الناس أن يصدقوه، إلا وهو واثق بأن الأمر كذلك، إذ لو كان عنده شك في ذلك لجاز أن يظهر كذبه في هذا الخبر، فيفسد عليه ما قصده، وهذا لا يقدم عليه عاقل، مع اتفاق الأمم: المؤمن بمحمد، والكافر به، على كمال عقله ومعرفته وخبرته، إذ ساس العالم سياسة لم يسسهم أحد بمثلها) ا.هـ[1].

﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾.

(وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾.

وهذه الآيات التي اقترحوها لو أجيبوا بها ولم يؤمنوا أتاهم عذاب الاستئصال كما تقدم، وأيضاً فهي مما لا يصلح الإتيان بها، فإن قولهم: حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً يقتضي تفجير الينبوع بأرض مكة، فيصير وادياً ذا زرع، والله من حكمته جعل بيته بواد غير ذي زرع، لئلا يكون عنده ما ترغب النفوس فيه من الدنيا، فيكون حجهم للدنيا لا لله، وإذا كان له جنة من نخيل وأعناب يفجِّر الأنهار خلالها تفجيراً، كان في هذا من التوسع في الدنيا ما يقتضي نقص درجته وانخفاض منزلته، وكذلك إذا كان له بيت من زخرف، والزخرف الذهب، وأما إسقاط السماء كسفاً، فهذا لا يكون إلى يوم القيامة، وهو لم يخبرهم أن هذا لا يكون إلا يوم القيامة[2] فقولهم: كما زعمت كذب عليه، إلا أن يريدوا التمثيل، فيكون القياس فاسداً) ا.هـ[3].

---

(١) الجواب الصحيح (٥/ ٤٠٨ ـ ٤٠٩).
(٢) كذا في الأصل.
(٣) الجواب الصحيح (٦/ ٤٣٥ ـ ٤٣٧).

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾.

(وقوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ لم يقصد بهذا اللفظ تفضيل الملك عليه، كما توهمه بعض الناس، كما أن قوله: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ [يونس: ٢] وقوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ لم يقصد به أن غيره أفضل منه) ا.هـ[1].

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾.

(وقال: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ﴾ الآية، فأخبر أن الضالين في الدنيا يحشرون يوم القيامة عمياً وبكماً وصماً، فإن الجزاء أبداً من جنس العمل) ا.هـ[2].

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾.

(فموسى وهو الصادق المصدوق يقول: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ فدل على أن فرعون كان عالماً بأن الله أنزل الآيات، وهو من أكبر خلق الله عناداً وبغياً، لفساد إرادته وقصده لا لعدم علمه) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (فأما الطبيعيون فلا يقرون بوجود وراء الفلك وما يحويه، وحقيقة قولهم أن العالم واجب الوجود بنفسه، ليس له مبدع ولا فاعل، وهذا هو التعطيل الذي كان يعتقده فرعون، حيث أنكر رب العالمين، وقال لموسى على سبيل الإنكار: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، فاستفهامه استفهام إنكار لا استفهام استعلام، كما يظنه من يزعم أنه سأل موسى عن الماهية، والمسؤول عنه ليس له ماهية، فعدل موسى عن ذكر الماهية، فإن هذا قول باطل، وإنما كان استفهام فرعون استفهام إنكار وجحود ولهذا أجابه موسى بما يقيم الحجة عليه، ويبين أن الرب معروف معلوم لا سبيل إلى إنكاره وجحده، وكان فرعون مقراً به في الباطن وإن جحده في الظاهر كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤] وقال تعالى عن موسى في خطابه لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ

---

(١) الرد على المنطقيين (٤٥٠ ـ ٥٤١).
(٢) مجموع الفتاوى (١٨/ ١٧٥).
(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ١٨٩ ـ ١٩٠).

﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ وهذا القول الذي أظهره فرعون هو قول المعطلة من الطبيعيين) ا.هـ[١].

﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾.

(وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ وهذا وإن قيل: إنه متناول سجود الصلاة، فإنهم إذا سمعوا القرآن ركعوا وسجدوا، فلا ريب أنه متناول سجود القرآن بطريق الأولى؛ لأن هناك السجود بعض الصلاة، وهنا ذكر سجوداً مجرداً على الأذقان، فما بقي يمكن حمله على الركوع؛ لأن الركوع لا يكون على الأذقان وقوله: (للأذقان) أي على الأذقان) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (ونفس الخرور على الذقن عبادة مقصودة كما أن وضع الجبهة على الأرض عبادة مقصودة يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ فمدح هؤلاء وأثنى عليهم بخرورهم للأذقان، أي على الأذقان سجداً والثاني بخرورهم للأذقان: أي عليها يبكون.

فتبين أن نفس الخرور على الذقن عبادة مقصودة يحبها الله، وليس المراد بالخرور إلصاق الذقن بالأرض كما تلصق الجبهة والخرور على الذقن هو مبدأ الركوع، والسجود منتهاه، فإن الساجد يسجد على جبهته لا على ذقنه، لكنه يخر على ذقنه، والذقن آخر حد الوجه، وهو أسفل شيء منه، وأقربه إلى الأرض، فالذي يخر على ذقنه يخر وجهه ورأسه خضوعاً لله ومن حينئذ قد شرع في السجود، فكما أن وضع الجبهة هو آخر السجود، فالخرور على الذقن أول السجود وتمام الخرور أن يكون من قيام أو قعود وقد روي عن ابن عباس ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ أي للوجوه[٣] قال الزجاج: الذي يخر وهو قائم إنما يخر لوجهه، والذقن مجتمع اللحيين، وهو غضروف أعضاء الوجه، فإذا ابتدأ يخر فأقرب الأشياء من وجهه إلى الأرض الذقن.

وقال ابن الأنباري: أول ما يلقى على الأرض من الذي يخر قبل أن يصوب

---

(١) الصفدية (١/ ٢٤٢).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٣/ ١٥٧).
(٣) ابن جرير (١٥/ ١٨٠).

جبهته ذقنه فلذلك قال: ﴿لِلْأَذْقَانِ﴾ ويجوز أن يكون المعنى يخرون للوجوه فاكتفى بالذقن من الوجه كما يُكتفى بالبعض من الكل وبالنوع من الجنس[١].

قلت: والذي يخر على الذقن، لا يسجد على الذقن، فليس الذقن من أعضاء السجود، بل أعضاء السجود سبعة كما قال النبي ﷺ: «أمرت أن أسجد على سبعة أعضاء»[٢] الجبهة وأشار بيده إلى الأنف، واليدين والركبتين والقدمين، ولو سجد على ذقنه ارتفعت جبهته، والجمع بينهما متعذر أو متعسر، لأن الأنف بينهما وهو ناتئ، يمنع إلصاقهما معاً بالأرض في حال واحدة، فالساجد يخر على ذقنه ويسجد على جبهته، فهذا خرور السجود ثم قال: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ فهذا خرور البكاء، قد يكون معه سجود وقد لا يكون.

فالأول: كقوله: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨] فهذا خرور وسجود وبكاء.

والثاني: كقوله: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ فقد يبكي الباكي من خشية الله مع خضوعه بخروره وإن لم يصل إلى حدّ السجود، وهذا عبادة أيضاً لما فيه من الخرور لله والبكاء له، وكلاهما عبادة لله) ا.هـ[٣].

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾.

(وكان النبي ﷺ[٤] يقول في دعائه: «يا الله يا رحمن» فقال المشركون: محمد ينهانا أن ندعو إلهين، وهو يدعو إلهين فقال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي المدعو إله واحد، وإن تعددت أسماؤه كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠]) ا.هـ[٥].

وقال رحمه الله: (فكذلك كان النبي ﷺ لا يقول: «سبحان اسم ربي الأعلى» لكن قوله: «سبحان ربي الأعلى» هو تسبيح لاسمه يراد به تسبيح المسمى، لا يراد به تسبيح مجرد الاسم، كقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ فالداعي يقول «يا الله» «يا رحمن» ومراده المسمى وقوله: ﴿أَيًّا مَّا﴾ أي الاسمين تدعوا،

---

(١) زاد المسير (٥/ ٩٨).
(٢) البخاري (٨١٠)، ومسلم (٤٩٠).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٣/ ١٤٢ ـ ١٤٣).
(٤) ابن جرير (١٥/ ١٨٢).
(٥) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٤٨٧).

ودعاء الاسم هو دعاء مسماه) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (وأما قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾: فهذا الدعاء: المشهور أنه دعاء المسألة، وهو سبب النزول قالوا: كان النبي ﷺ يدعو ربه فيقول مرة: «يا الله» ومرة «يا رحمن» فظن المشركون أنه يدعو إلهين فأنزل الله هذه الآية) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (وفي الدعاء: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ فقوله: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ﴾ يقتضي تعدد المدعو لقوله: ﴿أَيًّا مَّا﴾ وقوله: ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ يقتضي أن المدعو واحد له الأسماء الحسنى، وقوله: ﴿ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ ولم يقل: ادعوا باسم الله أو باسم الرحمن، يتضمن أن المدعو هو الرب الواحد بذلك الاسم.

فقد جعل الاسم تارة مدعواً، وتارة مدعواً به في قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] فهو مدعو به باعتبار أن المدعو هو المسمى، وإنما يدعى باسمه، وجعل الاسم مدعواً باعتبار أن المقصود به هو المسمى وإن كان في اللفظ هو المدعو المنادى، كما قال: ﴿ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ أي ادعوا هذا الاسم أو هذا الاسم، والمراد إذا دعوته هو المسمى، أي الاسمين دعوت ومرادك هو المسمى: ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ فإن هذين الاسمين هما أصل بقية أسماء الله تعالى) ا.هـ.

وقال رحمه الله: (قال: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾، وفي الصحيحين[٤] عن ابن عباس قال: «كان رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن سمعه المشركون فسبوا القرآن ومن أنزل عليه ومن جاء به، فقال الله له: ولا تجهر به فيسمعه المشركون، ولا تخافت به عن أصحابك» فنهى عن أن يسمعهم إسماعاً يكون ضرره أعظم من نفعه) ا.هـ[٥].

وقال رحمه الله: (قال المروزي: سمعت أبا عبد الله يقول: ينبغي أن يسر دعاءه،

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٣٢٣).
(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٤).
(٣) مجموع الفتاوى (٦/ ٢١١ ـ ٢١٢).
(٤) البخاري (١٣/ ٤٧١)، ومسلم (١/ ٣٢٩).
(٥) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٦٤ ـ ١٦٥).

لقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قال: هذا في الدعاء. قال: وسمعت أبا عبد الله يقول: «وكان يكره أن يرفعوا أصواتهم بالدعاء» ا.هـ[١].

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾.

(ولهذا ذكر محمد بن كعب وغيره عن المجوس والصابئة أنهم قالوا عن الله: لولا أولياؤه لذَلَّ فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ فإنهم يجعلونه محتاجاً إلى من يعاونه إذ كان مغلوباً من وجه مع القدماء معه، كما هو غالب من وجه) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (والله سبحانه يولي عباده إحساناً وجوداً وكرماً؛ لا لحاجة إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾، فالله تعالى ليس له ولي من الذل، بل هو القائل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠] بخلاف الملوك وغيرهم ممن يتولاه لذاته، إذا لم يكن له ولي ينصره) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (ولهذا قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾.

فالرب لا يوالي عبده من ذل، كما يوالي المخلوق لغيره، بل يواليه إحساناً إليه، والولي من الولاية والولاية ضد العداوة وأصل الولاية الحب، وأصل العداوة البغض وإذا قيل: هو مأخوذ من الولي وهو القرب فهذا جزء معناه، فإن الولي يقرب إلى وليه، والعدو يبعد عن عدوه، ولما كانت الخلَّة تستلزم كمال المحبة واستيعاب القلب لم يصلح للنبي ﷺ أن يخالل مخلوقاً بل قال: «لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله»[٥]) ا.هـ[٦].

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ١٥١).
(٢) جامع الرسائل (١/ ١٠٦ ـ ١٠٧).
(٣) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٣٧١).
(٤) منهاج السنة (٧/ ٣٠).
(٥) مرّ تخريجه.
(٦) منهاج السنة (٥/ ٣٥٢).